المشرق

الطيبة الذكر

جان درك البكر

بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي

في ١٨ من نيسان الغابر لبست امّ الكنائس في رومية العظمى ابهى حُللها من الانوار الزاهية والتصاوير الرائعة والنقوش البديعة اذ برزت في بهرة كنيسة مار بطرس صورة فتاة باسلة شهمة يزين جبينها الطاهر تاجٌ من النور كانت حجبتهُ سحب الاهواء فانقشعت السحب ولاح مثال الطهر مندمجاً بلامع الفروسيَّة وثبات الجنان . تلك جان درك وكانت قبل استشهادها احتجَّت على قُضاة الظلم الذين حكموا عليها فرفعت دعواها الى الكرسيّ الروماني ملجأ كل طريد ونصير كل لهيف . فما اكتفى الاحبار الرومانيُّون ان برَّأوا ساحتها بل عقدوا على هامتها تاجاً من الفخر لا يمنحونهُ الَّا لمن صرف الحياة ببراس اسمى الفضائل واجزل المبرَّات . ولم تُقدم رومة على هذا الحكم النهائي الَّا بعد الفحص المدقَّق والنظر الملي ومراجعة الوف مؤلفة من الكتابات التي وضعها المعاصرون في هذا الصدد فانجلى لها اليقين وصدعت بالحقّ الظاهر واعلن حبر الاحبار بأن الفتاة الفرنسويَّة جان درك احدى وليَّات الله قد استحقَّت بحياتها البارَّة المباركة تقيَّ وشهامةً ان تُكرم في عداد الصالحين بصفة طوباويَّة . فكان لهذا التصريح أطيب وقْع لدى الكاثوليك بل المسيحيّين كلهم عموماً وفي قارب الفرنسويين خصوصاً . وقد دقَّت البشائر في كل الانحاء وأُقيمت الحفلات البهيجة في عاصمة الكثلكة اوَّلا ثم في مدن فرنسة وسائر قراها فردَّدت كل اصداء البلاد محامد ابنةٍ قد ارسلها الله وأيَّدها بقوَّتهِ لتنقذ وطنها من ايدي اعدائهِ وقد كادوا يجعلونهُ اثرًا بعد عين

وليس ذكر جان دراك في مجلتنا من التوافل فانا نرى في تمجيدها في السنة الدستورية موافقة لحالنا فنعلم كيف الله وحده يعطي الملك من يشاء وينزعه عمن يشاء. وانه هو الذي يرفع المالك او يهبطها وربما اتخذ لذلك الات ضعيفة لتظهر بها قوة يمينه لئلا يفتخر ذو جسد امامه سبحانه ليس اله غيره

وفي هذه النبذة افادة أخرى للقراء الكرام ان يكونوا على بصيرة من امر تلك الفتاة العجيبة التي ورد ذكرها في بعض المطبوعات العربية . والكتبة الشرقيون على وجه الاجمال لا يعتبرون في شخصها اللطيف الا شهامتها واقدامها وخوضها ميدان الحروب فيكتفون بالقشرة ولا يذوقون اللبّ وربما نسوا الى محبّة الفتاة ما نسبته هي جهاراً الى دعوة الله ومشيئته الصريحة فكانت لفرنسة في اواسط القرن الخامس عشر كدبورة القاضية في بني اسرائيل وكلتاهما انقذت شعبها من رقّ عبودية عدوّ بالهام من الله. وها نحن نلخّص بجمل حياة جان دراك القصيرة في كل اطوارها فنعتبرها كفتاة في ربيع عمرها ثم كوسيطة لوحي الله ودعوته الخصوصيّة ثم تتبع اثارها في تحقيق دعوتها ونصر وطنها ونختم المقالة بذكر استشهادها الذي فتح لها باب الفخر والمجد

١ الفتاة البارّة

كان مولد جان دراك في فرنسة على حدود ولايتي شمپانية ولورّان في قرية صغيرة اسمها دُمرامي على نهر موز وذلك في ٦ كانون الثاني من السنة ١٤١٢ يوم عيد الغطاس وهو عند الغربيين عيد المجوس كأنّ الله رمز بذلك الى توطيدها عرش ملوك وطنها الذي كادت تمثّله نكبات الدهر او اشار به الى الكوكب المنير الذي قادهم الى مذود الفادي . وكانت المولودة خامسة ابناء والديها جاك دراك وايزبال روماي وكلاهما من افاضل تلك الناحية فكانا يُعرفان بتقاهما العظيم واستقامة سيرتهما وعيشتهما الساذجة وارتزاقهما من اعمال الفلاحة . وعلى ذلك خرّجا اولادهما جميعهم

ولنا على اعمال جان دراك منذ نعومة اظفارها الى الثالثة عشرة من سنّها اصدق الشهادات واثبت المعلومات . فانّ التحريات والتحقيقات المدقّقة عن حياتها في بيت والديها قد أُجريت بكل تدقيق لدى كثيرين ممّن عرفوها حقّ المعرفة وعاشوا معها وقد أثبتت شهادتهم بحرفها الواحد في مجموع واسع يتضمّن كل تقاريرهم في حقّها مع

تفاصيل اعمالها واستنطاقها امام القضاة قبل الحكم عليها. وهذه المآثر لا تزال حتى اليوم ممدودة لدى المحققين كموارد يقين وشواهد صدق لا يمكن نقضها وعليها شيدنا روايتنا دون ان نضيف اليها شيئاً. وفي الحقيقة المحضة من القوة والنفوذ ما يفوق تزويق الكلام وزخرفة الباطل

اخبر الكاهن منضر الفتاة — وقد دُعيت في معموديتها جان اي حنّة — انها نشأت في حجر والدتها فتربّت على التقى وخوف الله حتى بلغت رشدها فكانت تتمم واجباتها الدينية بخشوع وورع وترافق والدتها الى مزار قريب من قريتها كانت تُكرم فيه السيدة البتول واخذت قبل العاشرة من سنها تثابر على الاسرار المقدسة وتدمن على تلاوة الصلاة وهي لم تعرف منها الا ما يعرفه الامّيون كالصلاة الربية والسلام الملائكي ودستور الايمان. وكانت اذا سمعت صوت الجرس طربت لنغماته فترفع قلبها الى الله. وكانت مُحبّة للقريب لاسيما المساكين فتوزّع على الفقراء صدقاتها وقسماً من طعامها. فكان كل اهل القرية من صغار وكبار يعزّونها ويحبّونها للطفها وتقاها ويعرضونها على اولادهم كقدوة سيرتهم

ولم يعترج في اعمال جان درك شيءٌ يدلُّ على افراط في الدين او يشعر بغرابة في العمل وانما كانت سلسة الطباع دمثة الاخلاق ليّنة الجانب تختلط ببلداتها في ألعابهنّ وتعيش بين اترابها دون ان تمتاز عنهنّ بشيءٍ الّا رزانة طبعها وتقاها

ومن خواصها في فتاتها حبُّها للشغل فانها كانت تقضي ايام الربيع وفصل الصيف في اشغال الحقل مع اهلها فتحسن استعمال المرّ والمسحاة والمذرى وترعى المواشي واذا حلّ الشتاء عمدت الى المغزل فكان الشغل ظامئاً لحسن صحتها فتمرعت وهي شديدة البنية سليمة العقل لا تفكر في شيءٍ غير الاعمال البيتية والعيشة الاهلية بل لم تكن تعرف القراءة والكتابة فاقرّت عن نفسها « انها لم تعرف قط الالف من الباء »

٢ صوت الله

تلك كانت جان درك اذ اراد الله ان ينتدبها لتقوم بعب مهمّة جليلة لم تكن لتخطر على بالها سابقاً اعني خلاص وطنها من ايدي الانكليز الذين كانوا استولوا على معظم ولايات فرنسة وضربوا فيها اطناب سلطتهم حتى كادت تلك الدولة ان تضحي في ايديهم كبعض اعمال بلادهم

وذلك ان سلسلة ملوك فرنسة كانت انقطعت حلقاتها بانقطاع نسل السلالة الكبيتية فصارت حقوق الملك لفرع الكالسيين الّا ان ملوك انكلترّة المتسلسلين من اصل فرنسوي نازعوهم السيطرة مدّعين بانّ الحكم يرجع اليهم دون سواهم . ولمّا وجدوا فرنسة قد اضعفتها الفتن وهدّت ركنها الحروب الاهليّة وأصيب ملكها كارلوس السادس بمسّ في عقله انتهزوا الفرصة لمدّ ظلّ ولايتهم على اقطارها . فزحف هنري الخامس ملكهم على مدنها الحصينة وفتح مواقعها الحريزة موقعاً بعد آخر حتى لم يبقَ من تلك المملكة الواسعة الّا ما لا يُعبأ به . لاسيما بعد موقعة أزنكور حيث مُزّق شمل الفرنسويين كلّ ممزّق وبايرها عُقدت معاهدة مدينة تروا (Troyes) حيث بايع مالك فرنسة بالملك لصاحب انكلترّة وحرم ابنهُ عهد الوراثة وذلك في سنة ١٤٢٠ . واستفحل الشرّ وتفاقم الفساد بعد موت كارلوس السادس سنة ١٤٢٢ وكان هنري ملك انكلترّة سبقهُ الى القبر بضعة اسابيع الّا ان قوّادهُ لم يكفّوا عن الزحف تحت قيادة اخيه الدوق دي بدفرد وباسم ابنهِ ووريث ملكهِ الصغير هنري السادس . وكان الفرنسويّون خشّوا قواهم وأقسموا بسيف الطاعة لكارلوس السابع ولم يريدوا غيرهُ ملكاً الّا ان مساعيهم لم تأتِ بنجاح وكادت تسقط من ايديهم المدن القليلة الباقية على ولائها للمالك الشرعي واستشرى الفساد بانقسام رؤسا الجند الذين كان كارلوس السابع اختارهم لحروبهِ . وفي سنة ١٤٢٨ حاصر الانكليز مدينة اورليان التي كانت تُعدّ كآخر حصن للدولة الفرنسويّة حتى اذا فتحت ابوابها تُحمى عليها بالضربة اللازبة

لكنّ الله لم يشاء انتقاض مملكة فرنسة التي طالما اتخذها كفور في وجه اعداء كنيستهِ وكنصيرة لحقوق نوّابهِ على الارض . وقد سمح عزّ وجلّ بان الصدع يتفاقم ويبلغ السيلُ الزُّبى فيأتي كلُّ طبيب في الارض من حسم الداء . ويقرّ الجميع بانهُ تعالى « يحط ويرفع ويُحدر الى الجحيم ويُصعد » كما يقول الكتاب

وكان الرب منذ خمس سنوات يُعدّ الآلة التي اصطناها لتلك الغاية . فانّ جان درك في بعض أيام شهر نيسان من السنة ١٤٢٥ اذا كانت تشتغل في بستان مجاور لبيت والدها تراءى لها ملاك ملتحف بالنور قال لها بانهُ شفيع فرنسة ميخائيل واوصاها بالمواظبة على التُّقى ولزوم الصلاح وحدّثها بما أُصيبت بهِ مملكة فرنسة من البلاء . فذُعرت الفتاة من هذه الرؤيا وبقيت في دهشها مدّة . وكان الملاك سبق واخبرها بان الشهيدتين كاترينا

ومرغريتا ستظهران لها فأوعز اليها ان تسمع منهما وتنقاد لاوامرهما . فما لبث الامر ان تحقق بظهور القديستين وتكررت الرؤيا غير مرة حتى تقدمتا اليها بان تذهب الى الملك كارلوس وتنقذه مما دهمه من الملمات

فكان هذا الامر على قلب الفتاة اشد من وقع الصوارم فاخذت تتنصل وتتبرم وتعتذر قائلة انها ابنة مسكينة لا تحسن امتطاء الجياد ولا تدري بآداب الحرب . الا ان « الاصوات » كانت تعود فتقرع مسامعها وتكرر عليها الاوامر وتنشطها وتبعث همتها بقولها انهُ لا بدَّ لها ان تُذعن لصوت الله فتمشي الى مساعدة ملكها وتتقدم جنودهُ حاملةً راية النجاة الى ان يستردَّ ملكهُ المسلوب

فدامت تلك الاصوات العجيبة تدوي في اذن جان درك ثلاث سنوات وهي تتمنَّع غاية جهدها وتستنكف عن تلك الدعوة المخالفة لكل شواعرها واميال نفسها الى ان تحققت بانها اذا تخلفت عن الامتثال لامر الاصوات تقاوم مشيئة الله الواضحة . وكان آخر ما سمعتهُ من القديستين كاترينا ومرغريتا : « اذهبي وبلّغي ملك فرنسة بان الله مُرسلكِ لتعيدي لهُ عرش ابائهِ وتحظيه بمملكتهِ المفقودة . لا تخافي وكِلي امرك الى الرب الذي يحرسك وها انهُ يفعل آية باهرة عند مثولك بين يدي الملك ليوقن ببعثك ويثق بكلامك »

ولعلَّ القارئ يوقفنا عند هذا الحدّ فيقول وما ادرانا بأنَّ تلك الرؤى والاصوات لم تكن فعل مُخيلة او نوع من الخبال مُسَّ بهِ عقل الفتاة او نتيجة داء عصبي ألمَّ بها او حيلة احتالت بها لغاية بشرية

الجواب على هذا الاعتراض ان الابنة كما بيَّنا سابقاً كانت سليمة العقل تامة العافية لم يرَ قطُّ في كل حركاتها وسكناتها ما يُشعر بحالة مرَضية او اختلال في الشعور كما اقرَّ بذلك مئون من الشهود الذين عرفوها قبل بعثها وبعده من كهنة وعلماء وقوَّاد وجنود . ثم انها سُئلت مراراً بازاء الفاحصين فكانت تنطق امامهم سواء كانوا اصحاباً او خصوماً برباطة جأش دون ان تغيّر في شهادتها شيئاً او يفعل فيها الوعيد وخوف الموت . ومن الادلة على صدقها انَّ ما انبأتها بهِ تلك الاصوات قد تمَّ بحرفهِ في اوانهِ كما ظهر في مواطن الحرب وغيرها وتبيَّنهُ رجالٌ خالون من الاهواء والاغراض بل كانوا معادين لجان درك فاذعنوا للحق الظاهر بعد وقوع الحوادث . وزد على ذلك انَّ الفتاة

المختارة لم تطلب في كل اعمالها غايةً زمنيَّة من ربح او جاه او شهرة لأنها في كل اعمالها كانت تأنف مما يجلب اليها نظر الناس او يكسبها مديحهم او رضاهم ولمَّا بعثت بصلاتها طائلاً كثيرًا بعد موته في لانيي (Lagny) أبت ان تُنسَب اليها تلك الآية فنسبتها لتضرُّعات الحضور

٣ قائدة الحرب

في تموز من السنة ١٤٢٨ تهدَّدت جنود الانكليز والبورغونيين المتحالفة مدينة ڤوكولور المجاورة لمسقط راس جان درك فخرجت الفتاة البكر وسارت الى القبطان المتولي فئة من الجند في ڤوكولور المسمَّى روبرت دي بُدريكور فدخلت عليه بجرأة واعلنت لهُ بأنها مرسلة من الله لخلاص فرنسة وملكها. فتلقَّى الجنديّ هذا النبأ بالهزء والسخريَّة وردَّ الفتاة خائبةً. وسمع ابو جان بما فعلت ابنتهُ فتنمَّر من عملها غيظًا وزعم انهُ يؤثر ان يلقي كريمتهُ في النهر من ان يسمح لها بان تسير مع الجند. وبعد ذلك بقليل ألحَّت الاصوات السماويَّة على جان فعادت ثانيةً الى دي بُدريكور وصرَّحت لهُ بأنَّهُ ان لم يَبعثها الى المالك ستسير اليه ماشية ولو انقرضت رجلاها في السير الى ركبتيها. فتعجَّب القبطان من عزمها وتوسَّط في الامر غيرهُ من الاهلين حتى رضي بان يكتب الى الملك في امرها فرضي الملك بانفاذها الى شينون شمالي پواتيه حيث كان مقيمًا مع حاشيتهِ وقوَّاد جيشهِ

فلبست الفتاة بزَّة الفرسان وتقلَّدت سيفًا وركبت فرسًا اشتراهُ لها احد عمومتها في ڤوكولور فاخذ هذا المنظر بابصار الحضور اي مأخذ اذ رأوا بكرًا نقيَّة البشرة وشيقة القامة دعجاء العينين ذات شعر فاحم مسترسل على كتفيها يلوح على محيَّاها سماء الحياء واللطف وتبدو من خلاياها امارات مضاء العزيمة بارزةً في اهبة الجند. لكنَّ الفتاة لم تكترث لاقوال الناس بل سارت مسرعة الى الملك كرلوس السابع. والحق يقال ان الامر كان ماسًّا واحوال فرنسة في اضطراب لا يوصف والكل ينتظرون من يوم الى آخر فتح مدينة اورليان. والملك قد اخذتهُ الحيرة لا يرى وجهًا للخلاص الَّا الفرار الى اسبانية او اسكوتيا. فتجشَّمت جان سفرًا طويلاً مع فرقة من الجند المرافقين لها وكانت في طريقها تتقدَّمهم وتنشِّطهم وتذهلهم بشهامتها رغمًا عن اتعاب السفر وقلَّة استعدادها لمثل هذه العيشة وكانت الاصوات السماويَّة تؤيد عزيمتها قائلةً: هيَّا لا تجزعي فانك انت

المندوبة من الله لتخلّصي اورليان من حصارها وتقودي الملك الى رِمس ليتوّج فيها ويُمسح بالدهن المقدّس كآبائه ». فهذه الاقوال كانت « ابنة الله » تردّدها كما تسمعها من اصواتها فتمشي وعين العلي تقودها بقوّة لا تستطيع مقاومتها مهما شاءت

دخلت جان مدينة شينون في ٦ آذار سنة ١٤٢٩ بعد ان سبقت واعلمتهُ بقدومها لكنّ الملك شارل لم يظهر لاستقبالها ارتياحاً وخاف ان يهزأ به الناس لتصديقه ابنة احد الفلاحين مختلّة الشعور لا خبرة لها بامور المملكة بل لا تعرف كما قالت الألف من الباء. لكنّهُ سمع ما اخبرهُ عنها رجلان من اعيان الدولة كانا صحباها في الطريق فاطنبا لهُ في محامدها فاراد ان يختبرها وعقد لها حفلةً استدعى لها الوزراء وكبار دولته ونخبة الاكليرس وتنكّر الملك وجلس بينهم كأنهُ احدهم فادخلت في ذلك النادي المهيب وهي ثابتة الجنان لم تعرف الملك ولم يعرفها فسارت توًّا اليهِ وسلّمت عليهِ خارجةً عند اقدامهِ. ولمّا اراد الملك شرل ان يصرفها الى غيرهِ بحجّة انهُ ليس الملك قالت لهُ انّهُ هو هو وليس غيرهُ ثم اعلنت لهُ برسالتها قائلةً: « انا عذراء مسكينة لكني مأمورة من الله أتيتكَ لشدّ أزرك وتبشيرك بنصر قريب على يدي » ثم حاول الحضور ان يختبروها وألقوا عليها الاسئلة العديدة وتفنّنوا في اغوائها وخداعها لكنّها كانت تفحمهم وتجيب على كل المسائل حتى اغمضها برزانة عجيبة الى ان اخذ كثيرين منهم الاندهال كل مأخذ فصرخوا كسحرة فرعون عند بعثة موسى (خروج ٨: ١٩): « انّ اصبع الله لهاهنا »

على ان الملك وارباب الدولة لم يقتنعوا بذلك وعادوا الى امتحان الفتاة دفعات متوالية وهي تزيدهم دهشاً وحيرة بذكاء عقلها ولطف كلامها وشدّة عزمها. وقد كشفت للملك سرًّا من اسرار قلبهِ لم يُبح بهِ لأحدٍ من خواصّهِ كان يريبهُ منذ مدّة ويشغل عقلهُ ويزعجهُ بخصوص والديهِ فلا يدري أهو ولدهما الشرعيّ وليّ عهدهما ام لا. فسبقت جان واوضحت لهُ افكارهُ وهو لم يفاتحها بالامر فافرجت كربتهُ واسابغت غُصّتهُ فعدَّ ذلك آيةً من الله مؤيدة لصحة دعوة الابنة الوافدة عليهِ.

وبلغ خبر جان درك اهل اورليان في حصارهم فتبتّت عزائمهم ووطّنوا نفوسهم على شدائد الحرب واخذوا ينتظرون بفروغ الصبر ملاك السلام الموعود. امّا الملك وعمدتهُ واهل بلاطهِ فكانوا مترددين في امر الفتاة فلا يعلمون ما يصنعون فمنهم من كان يريد عضد جان درك وارسالها مع فريق من الجيش ومنهم من كان ينكر ذلك فكثر القيل

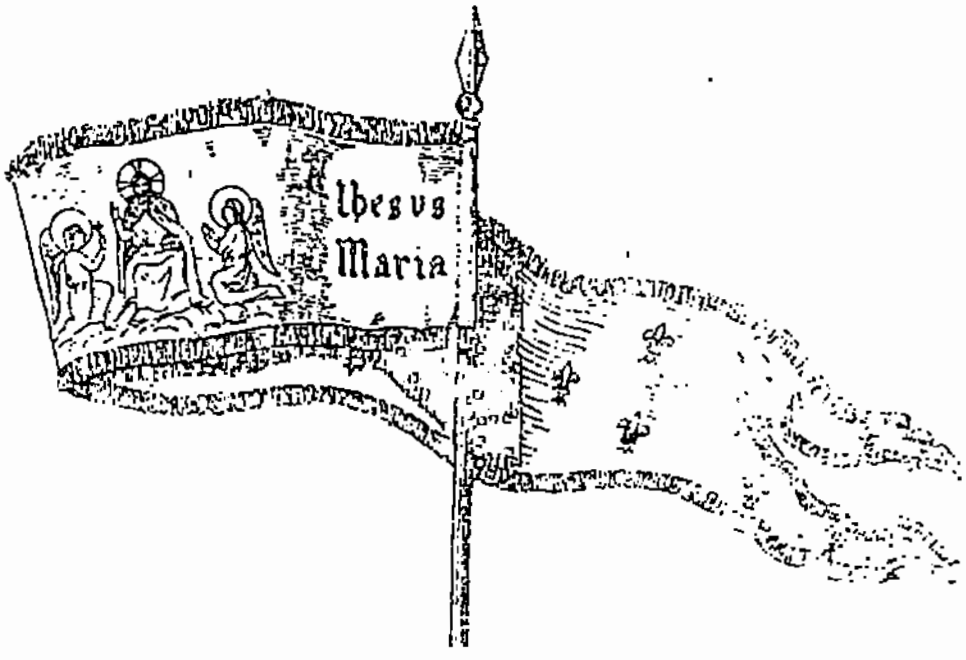

راية جان درك الموحى بها

والقال والايجاب والانكار حتى عاد الملك وألّف لهـا في بواتيه مجمعاً آخر من جهابذة العلماء الذين تفنّنوا فألقوا عليها مشكلات المسائل حتى اعيتهم الحيل وعادوا بالخيبة

وكانت احوال اورليان تزيد كل يوم حرجاً بهذا التريث والتردُّد والفتاة تنشدهم الله ان يتركوا الكلام الفضولي ويسرعوا الى العمـل حتى اضطرّتهم الى اختبار امرها فعلاً وكانت لا تزال تستمد في تلك النهضة معونة من السماء وتثابر على كل اعمال التقى كعادتها وتفتن الجميع بحماستها وتورعها معاً

فعوّل شرل الملك على تجهيز فريق من جيشه في عدد عشرة الاف جندي مع جان درك واقام الفتاة « قائدةً على عسكره » وعيّن لها فرساناً يعضدونها ويجرون اوامرها ثم لبست عدّة الفرسان وامتطت جواداً من اصيل الخيل كانت تجريه في الميدان بحذاقة غريبة وامرت أن يُصطنع لها راية على شكل ما رأتهُ في ايدي اللائكة وكانت الراية بيضاء من حرير في اطرافها الذهب تمثل السيّد المسيح بهيئة سلطان جليل جالس على السحاب تلوح في جسمه جروحات صليبه منيرةً وكان السيّد رافعاً في يده الشمال كرةً

ترمز الى العالم وهو يبارك بيده اليمنى ازهاراً من الزنبق شعار ملوك فرنسة يقدّمها له رئيسا الملائكة ميخائيل وجبرائيل وعلى جانب الراية اسما يسوع ومريم الكريمان

فهذه الراية الجميلة ركزتها جان درك في وسط الجيش وامرت الجند صباح مساء ان يحيطوا بها ويقيموا الدعاء الى الله بازائها بينما هي كانت تجثو على ركبتيها وتستحرّ بالصلاة امام الجميع . ولمّا اراد الملك ان يقلّدها سيفاً كامرائه لم ترضَ بل دلّت بإلهام من الله على سيف كان مطموراً في كنيسة على اسم القديسة كاترينا في قرية فيارويا على ستّ ساعات من شينون

فزادت بهذه العجائب ثقة الجنود بقائدتهم ومشوا في خدمتها مطيعين لاوامرها أطوع من بنانها . وكانت جان درك امرتهم جميعاً بان يطهّروا نفوسهم بالاعتراف عن خطاياهم وان يتقرّبوا من المائدة المقدّسة ويقبلوا القربان الطاهر . ثم سعت غاية جهدها بأن تستأصل من الجيش كل ما يغيظ الله من الآثام كالحلفان والسبّ والتجديف فضلاً عن السكر والفسق والمقامرة والعادات السيئة التي اشتهر بها الجند لاسيما في أيام الحرب

ثم ودّعت الملك وصرّحت له بالتفصيل ما سيجري لها وانّها ستخلّص اورليان وتُصاب بسهم في فتح البلد لكنّها لن تموت وانّها بعد نجاة اورليان تقود شرل الى رمس ليُمسح هناك ملكاً بالدهن المقدّس ويتوّج بجفنة حافلة وانّ هناك تنتهي دعوتها الّا انّ العدوّ سوف يُطرد من الوطن فلا يبقى آثرٌ للانكليز قبل سبع سنوات . وان هي قتلت بامرهم كان قتلها اعظم ضرراً لهم من حياتها . وكل هذه التصريحات قد تمّت بحرفها كما سترى

كان بودّنا ان نتتبّع آثار تلك السيرة ونزوي بالاطناب ما حصل لها في زحفها على اورليان وفوزها التامّ بالعدوّ الذي كان محدقاً بالمدينة كالسوار بالمعصم وكاد اهلها يذوقون مرّ النكال لكنّ ذلك يؤدي بنا الى طول الكلام وقد اختصرت تلك الوقائع اختصاراً حسناً كاتبة ادبية من المسلمات السيّدة زينب بنت علي فوّاز العاملي في كتابها « الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور » فننقل وصفها بالحرف (ص١٣٣) قالت :

« امرت بادئ بدأة بتطهير العسكر من عواهر النساء وحضّت الرجال على الاستمساك بالتقوى والاعتصام بالرجاء ثم زحفت على البلد فاستولى الرعب على قلوب الانكليز وقالوا : ما هذه بشرٌ إنْ هي الّا ملاك كريم او ساحرة اثيم . وكانت ترتدي بحلّة

بيضاء وتركب جوادًا اشهب وتنشر فوقها رايةً بيضاء فاذا بصر بها الانكليز وهي في هذا الهندام قرُّوا من امامها كأنهم حُمر مستنفرة فرَّت من قَسْوَرة (اي اسد) وما برحت تصدق الحملة وتُتابعها وتُبلي بالعدوّ البلاء الحسن وهي تتجرَّع من الخوف جيشها عنها وعدم انقيادهِ لها انواع الغصص وضروب الإحَن حتى استتبَّ لها الفوز فضعف الانكليز واستكانوا وضربت عليهم الذلّة اينما ثُقِفوا فأُلجئوا الى الجلاء على (والصواب عن) اورليان فكفُّوا عن حصارها في ١٨ أيار سنة ١٤٢٩ وانهزموا لا يلوون على شيء »

وكانت جان في هذه المعركة الاولى أُصيبت بسهم في صدرها فنزعتهُ بشهامة ولم تُبالِ بالوجع وكذلك رشقها في واقعة ثانية نبلٌ من نبال الانكليز في ساقها فتجلَّدت ولم تَزل سائرة الى الامام . ومما يجدر بنا ذكرهُ انَّ جان درك في واقعة اورليان كما في بقيَّة حروبها لم تضرب احدًا ولم تسفك نقطة من الدم بسيفها واذا كانت تتقدَّم الجند وتتسلَّق الاسوار وتحضُّ المحاربين بصوتها وتشيرُ اليهم برايتها المقدَّسة التي كانت تحملها بيدها وترفعها فوق رؤوس الجنود ليتقفَّوا اثرها وبعد فوز جيشها بالعدوّ كانت تمنعهم من الفتك بالاسرى وتضمّد جراحات الجرحى بايديها سواء كانوا من قومها او من عُداتها وتعطف عليهم وتبكي لاوجاعهم كالامّ الحنون . وكانت اذا أُعلن بالانتصار توارت مختفية في احدى الكنائس لتصلّي وتهرب من ثناء المهنّئين

ولم تُخلد جان الى الراحة بعد فتح اورليان الذي تمَّ لها بسبعة أيام فقط وكانت تقول علانيةً انَّ مدَّتها لا تطول كثيرًا على سنة واحدة فاسرعت وعادت الى الملك شرل فاكرم وفادتها واعدّ للتحفّي بها وليمة فاخرة لكنَّها لم ترضَ قائلة : « انَّ الحاجة ماسَّة والوقت قصير فلا يليق ان نضيعهُ بالقصف واللهو فسَراعِ ايُّها الملك هيَّا بنا الى رِمس » ولم تزل تلحُّ عليه اي إلحاح وهو يتردَّد ويتبرَّم حتى غلبت معارضتهُ

الَّا ان الطريق بين اورليان ورِمس كانت طويلة محفوفة بالاخطار وبين المدينتين جيوشٌ جرَّارة من الانكليز قد استولوا على احصن المواقع واحرز المدن كپاتاي (Patay) واكسار (Auxerre) وطروا (Troyes) وكان الفرنسويون لا يتقدَّمون الى جهة رِمس الَّا تُناصبهم قوَّات العدو تحت قيادة امراء وابطال مظفَّرين طالما نجَّدتهم التجارب وحنَّكتهم الحروب . فكان قوَّاد الفرنسويين اذا ساروا بجيوشهم امامًا زاد اضطرابهم وقلقهم ويرون انَّ مناجزة القتال تهوِّر وسفه لكنَّ جان درك كانت تملأ

القلوب ثقةً بمجدها وثبات بأسها حتى كادوا يتبعونها على رغم منهم كرهين

وقد جرت الامور كما تنبأت فكانت حيثما تسير تقطع نظام العدو وتمزق شملهم وتنكصهم على الأعقاب حتى عدُّوها كداهية الحروب او من مردة الجنّ. وكانت الفتاة تكلّم القوّاد كأنها واحدة منهم وربما اعلنت لهم ما ارادوا ان يخفوا عنها وتتصدّى لآرائهم اذا وجدتها مخالفة لما الهمتها الاصوات فتضطرُّهم الى ان يصادقوا على زعمها فاذا قنعوا وجدوا الفوز والنجاح واذا تمدّوا تولها فشلوا وندموا . وكانت جان مع ذلك طليّة الروح فكهة اللسان تمزج كلامها بشيء من المزاح - فمن ذلك قولها للدوك دي ألنسون في بعض المعارك: « طِبْ نفساً ولا تخف عدواً فاني وعدتُ الاميرة قريبتك بان اعودُ بك سالماً ». ومنها جوابها الى احد الفاحصين عن امرها وكان خشن الكلام ثقيل اللسان فسألها هل الاصوات التي تسمعها فصيحة هي فاجابت: « نعم سيّدي انها افصح من لسانك وابلغ من منطقك ». فأفحمتهُ . وكانت جان وعدت الملك شرل بانها تدخلهُ رِمس دون ان يحترط سيفهُ من غمده فتمّ الامر كما قالت فكان ودخل المدينة بابهّة عظيمة في اليوم الذي قررّتهُ جان درك بعد ان ألجأت اهلها وحاميتها الى طلب الصلح لما داخلهم من الرعب والخلع لقدومها . وكان ذلك في منتصف شهر تموز. وفي ١٧ منهُ أُقيمت حفلةٌ حافلة لا يفي بوصفها قلم وبها مُسح شرل السابع ملكاً على فرنسة بالزيت المقدّس الذي كان يُصان في كنيسة المدينة الكاتدرائية في قارورة شهد المؤرخون على انّ حمامةً اتت بها من السماء على طريقة عجيبة يوم مُسح اوّل ملوك فرنسة الملك كارفيس على يد القديس ريميجيوس اسقف رِمس

وكانت جان في ذلك اليوم واقفة على مقربة من الملك وفي يدها رايتها المظفّرة وعلى جانبها ابوها وعمها كادا يطيران من الفرح لما نال عزيزتهما من المجد الاثيل . وكانت عيون الجميع شاخصة الى تلك الفتاة السماويّة . ونسان حالهم يردّد فيها ما قالهُ اهل اورشليم يوم ظفرت يهوديت باعداء اسرائيل : انت مجد وطنكِ انت فرح شعبكِ انت فخر كل بلادنا

٤ الشهيدة

كانت دعوة جان درك على ما قالت لها الاصوات العاليّة تمّت بتتويج الملك شرل على فرنسة لأنها بذلك مهّدت الطريق للانتصار التامّ على اعداء بلادها . فلمّا انتهت

تلك الاعياد البهيجة جثت لمام الملك وطلبت منهُ ان يُطلق سراحها فقالت: «قد فُزتَ ايها الملك الجليل بالنصر الموعود ونهجتُ لك السبيل فالزمها تَفُزْ بعدوّك امّا انا فقد قمت بأموريّتي وانجزتُ وعدي وما بقي لي الّا ان اقريك الوداع واعود الى بيت ابي قريرة العين فأرعى الماشية كألوف عادتي واغزل الصوف في كنف والدتي كما نشأتُ عليه»

لكنَّ الملك ابى ان يجيب الى ماتمسها ولم يزل ملحًّا عليها الى ان اقنعها فلم تَرَ بدًّا من مرافقة جنوده في حروبهم فسارت تتقدّمهم كما فعلت سابقًا واظفرتهم بعدوّهم مرارًا حتى انَّ الملك جازاها واسرتها كلّهم بمنحهم رتبة الاشراف دون التماس منها

ومع ما ابدتهُ حينئذٍ من اعمال الفروسيَّة والبأس كانت لا تزال تسمع اصواتها تنبئها بما سيحلُّ بها من الشدائد فكانت الفتاة تنتظرها بعزم وثبات مسلّمة بامرها لارادة الله. لاسيما ان تلك الاصوات كانت تنعش قواها وتعدها بالفوز النهائيّ

وبقيت جاريةً على خطّتها من الاقدام والتحمُّس مع ملازمة اعمال البرّ والتقى الى شهر ايار من السنة ١٤٣٠ حيث جُرحت في كمبيان فأسرها احد الامراء المحالفين للانكليز. ثم غدر بها واسلمها الى اعدائها واخذ كيوداس حقَّ خيانته وبأسرها صحَّ قولها للملك ولحاشيته انَّ أيامها بينهم محدودة لسنةٍ وبعض سنة. وكانت القديستان كاترينا ومرغريتا في عيد الفصح من تلك السنة ظهرتا لها وانبأتاها بقرب وقوعها في ايدي العدوّ فلم يبق لها الّا ان تشرب الكأس التي اعدَّها الله لها فتنال الرفعة بالصليب والمجد بالآلام

وكان يوم سقوطها في ايدي العدوّ يومًا مشئومًا على الفرنسويين وهو الرابع والعشرون من أيار ١٤٣٠ وعدَّهُ الانكليز نصرًا باهرًا وقد ابتاعوها من الذي اسرها بمبلغ من المال كان في ذلك العصر يدفع كدية الملوك وحدهم

ومنذ ذاك الحين دخلت جان درك في درب صليبها الذي تعدَّدت مراحلهُ وطالت مدَّتهُ الى سنةٍ بتيقٍ فكبلّوها بالقيود واذاقوها مرَّ العذاب ونقلوها من مدينة الى مدينة ومن سجن الى آخر وهي مع ذاك تحتمل تلك الاوجاع بصبر جميل وكانت في عزلتها تضيق نفسها وتأنف من سوء معاملة اعدائها وتسعى ان تفرَّ من ايديهم لتعود الى معسكر الفرنسويين. واذ وجدت يومًا وجهًا للخلاص قفزت من اعالي البرج الذي حُبست فيه الى الحضيض دون استشارة اصواتها فجُرحت لكنَّ جرحها برئ بنوع

عجيب وكانت اصواتها مع ذلك لا تفارقها فتراءى لها القديستان حيناً بعد حين وتنعشان قواها وتوطّنان نفسها على مقاساة مُمض الحبس بل الموت نفسهِ لأنها بذلك تظفر بما هو اعظم من كل حطام الدنيا. فظهرت الفتاة في أيام نكبتها اكبر منها في مواطن شرفها وانتصارها

وفي اواسط شباط من السنة ١٤٣١ باشر اعداء جان درك من الفرنسويين المحالفين للانكليز فحص دعواها لعلّهم يجدون في سيرتها علّةً ليحكموا عليها بالموت وكان متولّي تلك الدعوى اسقف بوفه المدعو كوشون فاحضرها امامهُ واستنطقها ثمَّ سيقت بعد ذلك الى المحكمة ست عشرة مرّة أبدت في خلالها من جُرأة الصدر واطمئنان الجأش ما اذهل قضاتها انفسهم وكان هؤلاء يلقون عليها الاسئلة المشكلة عن دعوتها واصواتها وايمانها وغايتهم ان يوقعوها في مغواة تمكّنهم من الحكم عليها. الّا ان جان كانت تجيب على تلك المعمّيات بوضوح وصراحة لا تبقي لأحد عليها ماخذاً. فنفت عن نفسها الشكاوى التي اخترعوها عليها كاتّهامها بالسحر وغير ذلك ممّا بانت كذبهُ بدقّة عجيبة حتى انَّ الحضور كانوا عند سماع قولها يصرخون علانيةً: «يا حبّذا الجواب. ما اصدق قولها حيّاكِ الله نعمَّا قلتِ»

وكان آخر ما وجد هؤلاء قضاة الظلم ليقرّفوها به ويحكموا عليها انَّهم نسبوا اليها البدعة ولاموها على لبسها لبس الرجال وانما فعلت ذلك تعفّفاً وصوناً لطهرها بين الجنود فقضوا عليها بالسجن المخلّد «وبان تُقات بخبز المتاعب وتُروى بمياه الاوجاع»

ثم دسّوا لها دسيسة فنزعوا عنها ثياب النساء في حبسها فلم يبقَ لها غير لبس الفرسان فلبستهُ مضطرّةً واتخذ اعداؤها هذا العمل كعصيان لاوامرهم فحكموا عليها بان تُحرق حيّةً كما يُحرق الهراطقة المبتدعون المصرّون على عنادهم. امَّا جان فاذ علمت انَّ فوق حكم هؤلاء الظالمين حكماً آخر اعلى واعدل وهو حكم الحبر الروماني طلبت بان يُرفع اليهِ دعواها فلم يصغوا احتجاجها بالًا واستعدّوا لانفاذ الحكم فيها

ولما رأت الفتاة انَّ يومها الاخير قد قرب أُصيبت بقشعريرةٍ واكتأبت لجور القضاة لكنّها تذكّرت ما قالتهُ لها الاصوات انّها ستموت شهيدةً فاستعدّت لمقابلة ربّها بطلب الاسرار فاعترفت بذنوبها وتناولت القربان الاقدس مذوقةً للدموع السخينة ثم التفتت الى احد الحضور قائلة: «في مساء هذا النهار بنعمة الله اكون في الفردوس»

ولما حانت ساعة موتها البسوها ثوبًا طويلًا ابيض وجعلوا على راسها قرطاسًا كتبوا فيهِ ما شاءوا من علل موتها وقادوها بين شرذمة من الجند الى محطبة عالية ليحرقوها. وكان آخر ما فاهت بهِ انَّها لم تصنع ما صنعت الَّا بامر من الله وانها تستأنف حكمها الى الحاكم الازلي العظيم ثم دعت باسمي يسوع ومريم الكريمين وكرَّرت دعاءها بصوت جهور وقبَّلت صورة المصلوب وبقيت شاخصةً اليهِ حتى تطايرت نفسها الى الاخدار الابديَّة. وقد وقعت وفاتها الداحلة في ٣٠ أيار من السنة ١٤٣١

٥ الفتاة المجدَّدة

انَّ مجد جان درك كمجد المسيح سيِّدها قد ابتدأ يوم وفاتها فكان موتها هو الفوز العظيم الذي اشارت اليهِ اصراتها. واوَّل آية ظهرت اذ ذاك انَّ احد الجنود الحاضرين للتمثيل بها رأى نفسها على شبه حمامة تُحلق الى السماء كأنَّها طائر أُطلق من اسارهِ. واعجب من ذلك انَّ جسمها حار بعد قليل الى رماد واحترقت عظامها لكنَّ النار لم تمسَّ قلبها واحشاءها فبقيت سليمةً بآية باهرة اوجبت كاتب ملك انكلترَّة ان يصرخ: « ويلٌ لنا قد احرقنا فتاةً بارَّةً قديسةً ». وكثير من اعداء جان اجهشوا بالبكاء وقرعوا الصدور ندامة فانَّ السجل لحكم موتها قضى شهرًا بتمامهِ يبكي على المظلومة ليلًا مع نهار. والاسقف كوشون قاضيها نفسهُ لم يتمالك من البكاء على تلك التي كان هو علَّة موتها. امَّا الجلَّاد الذي ربطها على الخشبة قبل حرقها فانهُ لمَّا رأى النار قد صانت قلبها ركض مسرعًا الى دير قريب صارخًا: « أيا تُرى يغفر الله لي الاثم الذي اجترحتهُ في هذا النهار »

ومذ ذاك الحين جعل الناس يكرمون جان درك ويعتبرون تلك الراعية كراعية أخرى كانت في سالف الازمنة خلَّصت بلادهم من البرابرة اعني جنقيان التي نجَّت باريس من اتيلا ملك الهونيين. وزادت ثقة القوم بشفاعتها لمَّا رأوا بعد سنين قليلة « كسرة الانكليز وخروجهم من تخوم البلاد لم يُبقوا فيها غير عظام موتاهم » كما انبأت بوحي من الله. فانَّ باريس عاصمة الدولة رجعت الى طاعة ملكها واستردَّ شرل كل المدن والقلاع التي كان ضبطها العدوّ منذ أيام جدّهِ ووالدهِ

وممَّا اظهر على رؤوس الاشهاد مجد بكر اورليان انَّ الاعداء الذين حكموا عليها ظلمًا أُصيب معظمهم بآفات شتى وعُوقبوا انكأ العقوبات فمات الاسقف كوشون اوحى

ميتة . وقضى المدّعي عليها نحبهُ في اسوأ حال . ومات بالبرص الخطيب الذي حأل مرتها . وأسر الفريق بدفورد الذي استأسرها فحُبس في روان في عين القصر الذي حُبست فيهِ جان درك فنُكِّل بهِ كما نُكل بها وصار للجميع عبرة ظاهرة

وفي منتصف شهر شباط من السنة ١٤٥٠ امر البابا كالسطوس الثالث الملك شرل بان يؤلف لجنة من كبار الفقهاء وارباب الدين ليعيدوا النظر في دعوى جان درك . وكان امر البابا كجوابهِ لها لمَّا رفعت دعواهـا الى الكرسي الرسولي فاستؤنف فحص الدعوى وبعد ثلاث سنوات من بحثٍ مدقَّق اتَّفق اهـل الديوان على نقض حكم الاسقف كوشون وحزبهِ واجمعوا على تزكية جان درك

فحـدث عمَّا اصاب عموم الفرنسويين من الفرح ولا حرَج ومن ثمَّ اخذ الاهلون يطنبون في محامد تلك البكر الشهمة فجمعوا اخبارهـا ومثَّلوا على المراسح بسالتها واستعانوا بكل الفنون الجميلة لتعظيمها فأُقيمت لها أُلوف من التماثيل البديعة والصور الجميلة وانشد الشعراء القصائد الغرَّاء في مدحها (١ . وكانت مدينة اورليان في مقدَّمة المدن التي اكرمتها واتَّخذتها لها شفيعةً ومنذ سنين عديدة لم تزل تقيم في كل سنة حفلةً دينيَّة بهيجة في ٨ ايَّار تدعو اليها الذوات والاعيان ذكرًا لتلك العذراء التي ظهرت في زمانها كسيف الله الذي قشع دجى الظلام بنورهِ اللامع فكشف كربة فرنسة وردَّ اعداءها خاسرين

واليوم قد بلغ شرف جان درك اوج رفعتهِ اذ رنَّ في العالم صوت الخبر الروماني فلم يزكِّها فقط من كل وصمة أُلحقت بها بل توَّج هامتهـا بتاج يفوق تيجان الملوك ونظمها في قلادة العذارى القديسات اللواتي يُشبهن الحمَل حيثما سار كحاشيتهِ الخاصة . ولا غرو فان بكر اورليان لم تخدم عاهلًا ارضيًّا بل ملك السماء وحدهُ

اخبر الذين رأوا جان في بلاط الملك شرل بعد قبضهِ لزمام الملك في رِمس أنَّهـا

---

(١) ومن عجيب الامور انَّ الزنديق فولتار شتم تلك الفتاة السماويَّة كما رشق بلسانهِ النذل كل صالحٍ وجميل . قالت السيِّدة زينب في كتاب ربَّات الخدور ونعم القول (ص ١٢٤) : « قد عاب الرأيُ العام فوليك (تريد فولتار) بقصيدتهِ التي اودعها ذمّ جاندارك وتسويد صحيفتهـا بانواع السبّ الظالم والقذف النادر ولكنَّهُ لا يُستغرب ذلك ممَّن اوقف حياتهُ على تقويض عمد الديانات وتزييف اوليائها »

دخلت يوماً عليه فقال لها : ايتها العزيزة بماذا نجازيك عن اعمالك الشريفة . فقالت له : انا اطلب منك عوضاً عن اتعابي نعمةً واحدة أتعدني انك لا تنكرها عليَّ . فقال : لكِ ما شئتِ ولو طلبت مملكتي . قالت : وهذا الذي ارغبهُ منك . ان تمنحني المملكة كلها ساعةً وتكتب في ذلك صكًا تمضيه بيدكَ . فتعجب الملك من طلبها لكنهُ فعل كما وعد . فلما صار الصكُّ في يد الفتاة انطرحت امام الراية التي كانت تتقدَّم بها في الحروب وعليها كما قلنا صورة السيد المسيح على هيئة ملكٍ جليل فأهدتهُ مملكة فرنسة ليكون هو ملكها الابديّ . ثم قامت وانطرحت عند اقدام الملك قائلة : « اعلم انَّ مملكة فرنسة هي ملك المسيح وحدهُ . وقد اثبتَّ ذلك بقرارك الجديد فاملك عليها لا كملك مستبد بل باسم الذي يجعلها تحت حكمك لتكون كعامل لهُ تدبرها باسمه »

فكان لهذا الكلام اطيب وقع في نفس الملك واثَّر في كل الحضور الذين تأكَّدوا دون ادنى رَيب بانَّ بعثة جان دارك كانت كأنها من السماء . وقد لاح الامر بعد ذلك بعثة سنة باجلى برهان لمَّا انفصلت انكلترَّة عن الكنيسة الكاثوليكيَّة وتورَّطت في البدعة والضلال فانَّ فرنسة كانت في وجه الهرطقات كسور منيع ردَّ كيدها في نحرها . ولو استولى الانكليز على فرنسة في أيام شرل السابع لكانت ذهبت ابنة الكنيسة البكر كبريطانيَّة العظمى فريسة الكفر والبهتان

فعسى ان يكون اليوم تمجيد جان دارك كفاتحة عصر جديد لفرنسة فتقوى الكنيسة على الشيع الكفريَّة التي مدَّت عليها سيطرتها وجاهرت الدين بحرب عوان . فلتقم ثانيةً وتبدِّد اعداء الله فيعود لفرنسة بهاؤها وعزُّها السابق وتضحي كما كانت سيف الله في ارضه لنصرة الحق وتعزيز الصخرة البطرسيَّة

(حاشية) قد نبَّهنا القرَّاء في مطاوي الكلام على تقصيرنا في وصف اعمال بكر اورليان . على اننا نغتنم هذه الفرصة الجديدة لنثني على الترجمة المطوَّلة التي وضعها منذ عهد قريب احد افاضل الرهبان حضرة الاب ڤرنيه اليسوعيّ وقد دعا المؤلف كتابهُ « سيرة حنَّة دارك البكر المكرَّمة مخلِّصة مملكة فرنسا » وقد اودعهُ مآثر تلك الفتاة الشهمة في دينها ودنياها . فنحضُّ الشرقيين على مطالعته في هذه السنة خصوصاً التي فيها شاع اسم جان دارك بترخيص اكليها على المذابح

وكنَّا انتهينا من تسطير هذه المجالة اذ وقع نظرنا على مجلَّة العالمين Revue)

(des deux Mondes, Avril, 1909, p. 913—934) الفرنسوية فوجدنا في مقالة مطوّلة ذكر كتابين في هذا المعنى الاوّل لاحد الفرنسويين قد أعمى الهوى والالحاد ابصارهُ وهو اناتول فرنس (A. France) صنّفهُ للتشنيع على جان درك والازراء بها وقد ادّعى انهُ كتب ما كتب بنزاهة مستندًا الى الاسانيد الصحيحة فكان تاليفهِ امراً وقع في القلوب ليس في فرنسة فقط بل بين الاجانب ايضاً وممّن تحرّى تكذيبهُ احد البروتستانت في انكلترّة اندرو لنغ (And. Lang) من بلاد اسكوتيا فوضع كتاباً كان باشر في تاليفهِ منذ عدّة سنوات فانتهى منهُ آخرًا وردَّ فيهِ على كل مزاعم اناتول فرنس واسم كتابهِ « ترجمة فتاة فرنسة » (Maid of France) وهو تاليف جليل في كل اقسامهِ من حيث مضامينهِ وبلاغة انشائهِ وصدق مصادرهِ فجاء اسنى هديّة قدّمها رجل منزّه عن الاغراض الدينيّة والسياسيّة لمدرّ بلادهِ واقرّ جهارًا بانّ حياة جان درك واعمالها اعجوبة باهرة لا يستطيع احد ان يدركها ما لم ينظر ما فوق الطبيعة. وهذا الرأي اليوم هو الرأي الغالب في انكلترّة (Etudes, 20 Avril, 1909, p. 184-205)

اما الكتاب الثاني فهو لحضرة الاب البندكتي دون لوكلارك (Dom Leclercq: *Les Martyrs. VI: Jeanne d'Arc, Savonarole*, Oudin et C^ie^ Paris, 1908) جملة الجزء السادس من مجموعهِ في الشهداء النصارى ضمّنهُ الاخبار التي رويناها مع ذكر شواهد منقولة عن معاصري جان درك

بديعية ابراهيم خيكي

لوطنية

في مكتبة باريس العموميّة عدّة مخطوطات عربيّة يتجاوز عددها ٣٠٠٠ حصلت عليها عمدتها بالشراء في هذه السنين الاخيرة وقائمة هذه المؤلفات لم تُنشر بالطبع مع المخطوطات العربيّة التي وصفها المستشرقان دي سلان (G. de Slane) وزوتنبرغ (H. Zotenberg) لانّها دخلت في ملك الدولة بعد نهاية طبع فهرسها. وفي رحلتنا الى باريس العام الماضي وقفنا على بعض هذه المخطوطات الجديدة فنقلنا عنها ما رأيناهُ مفيدًا لقراء المجلّة. ومن جملة تلك الآثار مجموع نصراني

يحتوي عدّة منتخبات من كتبة نصارى خطّ سنة ١٨٣٥ برسم الشمّاس دانيال الراهب الحلبي وهو الذي سُمّي بعد ذلك على الطريقة البطريركية وعُرف باسم المطران مكاريوس حدّاد. وفي الصحيفة ١٦٩ منهُ بديعيّة ألفها سنة ١٧٣٣ احد ادباء النصارى في حلب اسمهُ ابراهيم خيكي الحلبي جرى فيها على طريقة بعض اهل البديعيّات فالتزم في كل بيت نوعاً من البديع مع تسمية ذلك النوع فجمع في قصيدتهِ ١٥٢ شكلاً بديعياً. وفي بعض هذه الابيات تعسّف ظاهر كما يرى في بديعيات اسلافهِ. امّا معاني هذه البديعية فرجعها الى مدح النصرانية وذكر مفاخرها والثناء على مشيها الالهي ورسلهِ الاطهار وكنيستهِ التي وكل تدبيرها الى بطرس الصفا. فاحببنا نشرها قبل ان تأخذها ايدي الضياع. امّا ناظمها فلم نجد لهُ ذكراً في ما لدينا من اخبار حلب المتحدثة. ولعلّ احد ادباء الشهباء يمكنهُ ان يسدّ الخلل فيفيدنا عنهُ شيئاً ولهُ منا الشكر سلفاً ل. ش

براعة الاستهلال	براعتي في امتداحي منهل النعم	قد استهلّت بديع النظم كالعلم
الجناس المركب	قد هام قلبي بتركيب الغرام فقل	لي ما تشا مطلقاً لم تقتصر همي
الجناس المقلوب	كم ضلّ لاحٍ بلحظٍ ظلّ ينشدهُ	والقلب ما مالَ الّا لامَ للندم
الجناس الملفّق	في المنهل العذب لا يختار مع ظلم	مضنى بتلفيق ما يرويه من عظم
الجناس المطرّف	قد صاح داعي الهوى تمتّ دعوتهُ	وزدتَ يا صاحِ تطريفي ولم ألم
الجناس اللاحق	ان ذيل الحبّ حبلٌ ان وصلتهُ بلا	فصل لحقتُ بذيل الجود والكرم
الجناس المصحّف	وقد تصحّف حبّ الغيد عندي كما	تحرّف القلب عن ذا السقم بالقسم
الجناس المعنوي	وملتُ نحو ابن نواء المعنوي عسى	يصير لي كابن رعد او ابي الامم
الاستطراد	مستطرداً خافهُ خيل الغرام ولم	اخشَ الكمال ولو فيهِ يُراقُ دمي
الافتنان	وصرتُ في حبهِ والافتنان بهِ	انمي زماناً مضى شدراً بغيرهم
التخيير	وقد تخيّرت موتي في محبّتهم	ولو طلبتُ سواهُ متُّ من ندم
ردّ العجز على الصدر	صدر المعالي لهم ترتدُّ راجعةً	كردّ عجز أعاديهم لصدرهم
القول بالموجب	قد اوجبوا القول أني عن محبّتهم	قد ملتُ قلتُ الى الاتلاف والعدم
التذييل	وطال تذييل سهري في الغرام وقد	نام الخلي ومُضنى الحبّ لم ينم
الالتفات	ومذ نأوا عن عياني عدتُ ملتفتاً	سيروا الهوينا بقلبي وارحموا سقمي
الاستعارة	ساروا بجيل غرامي عندما استعرتْ	نار الجوى في ضميري يوم بينهم
الاستخدام	واستخدموا في الدجى نجماً ليرشدهم	وقد رعتهُ ضحى أنعام سربهم
الاكتفاء	وما اكتفيتُ بتسهيد الطريق لهم	بل رمتُ تشقيت منها شمل كل كمي

الطباق	طابقتُ ان بذلوا قربي ببعدهم	ولا اطابقُ ان شحُّوا بوصلهم
المناقضة	ناقضتُهم ان نَوَوا هجري ولو بُدلت	حالي وعدتُ رضيعاً غير منفطم
المقابلة	قابلتُ ذلي وفقري شقوتي نسبي	بعزهم والغنا والسعد والنعم
ارسال المثل	صبرتُ في الحبّ حتى قلت ممتثلاً	مَن حاول الكيَّ فليصبر على الالم
الالتزام	جعلتُ حبَّهم في الناس ملتزمي	وعن هوى غيرهم اعدو كمنهزم
المراجعة	قالوا تُراجعهم ذلّا فقلت نعم	قالوا إلامَ تلتُ هذي شيمة الخدم
تشابه الاطراف	بهم تشابهُ أطرافٍ حلَلتُ بهم	بهم أهيم ولو طال المدى بهم
الاستدراك	قالوا القريبُ تناسى حبَّهم وسلا	فقلت مستدركاً لكن على ضرم
المواربة	واربتُ مذ لامني اللاحي وقلتُ لهُ	حييتَ يا سمجَ الاخلاق والشيم
الهزل المراد بهِ الجدّ	بالجدّ هازلني صحبي بقولهم	يهنيك أخصب بجسم مذ رأوا ورمي
الايهام	وأيهمَ النُّصح عذّالي بشقشقةٍ	وليتَ شقَّ الحشا من قبل نصحهم
النزاهة	لمَّا اختبرتُ امورًا منهمُ صدرت	تزعت قلبي بحقٍّ عن ودادهم
الهجو بعرض المدح	هجا بعرض مدحٍ عاذلي شرفي	يقول سرتم بجلّ الذلّ والتهم
التهكُّم	فبالتهكُّم عِبتُ المتنبي شرفًا	قد عشت معتبرًا بشراك بالندم
التغاير	تغايروا في مديح الجاه وافتخروا	وكم رمى اهلَهُ بالذلّ والنقم
السهولة	فلا افتخارَ بغير الفضل انَّ بهِ	سهولةً تجعل الشأن الوضيع سمي
الاهمال	اعمل صلاحاً وأهمل كل طالحةٍ	ودَعْ كلام عدوّ الله كالعدم
الكلام الجامع	جمعُ الكلام اذا لم يحتفل ادبًا	لم يكتسب من جناهُ لذّة الحكم
المساواة	كلِم أخا دعةٍ تعُدْ اخا ملكٍ	فيستوي منك قلبٌ غير منقسم
الاقتباس	ان شكّكت عينُك اليسنى فأقلعها	وألقِها تقتبسْ نورًا وانت عم
التوجيه	فمن توجّه نحو الله منتصباً	بكسرة القلب يبنيهِ كما العلم
المزاوجة	اذا تزاوج ذنبي واعترفتُ لهُ	نفى عذابي وكافاني على الندم
الرجوع	وما رجعتُ الى نفسي أوَنّبها	نعم رجعتُ ولكن عند مُنهزمي
معاتبة المرء نفسه	يا نفسِ أصغي لعتبي واقبليهِ كفى	كم تازميني بفعل غير محتشم
التسليم	فهل يبرّئني تسليم خدعتكِ	فلا لعمري ولو عدتُ الى العدم
القسم	لا كنت حيًّا ولا بُلّغت نيل منًى	ان كنت اصغي لدعواكِ رذا قسمي

حسن التخلص حتى أستعين على حسن التخلص من ... ما قد جنيتُ بمدحي معدن الكرم

المجاز يسوعُ بكر الاله ابن البتول نجا ... ز الانبياء وربٌ في اطرادهم

العكس نورُ الوجودِ وُجودُ النورِ منهُ بدا ... في الكون يا عكس شبهٍ عن سناهُ عمي

حصر المجاز في الكل فردٌ بهِ كلُّ اجزاء الورى انحصرت ... وذاتهُ علّة الاكوان من عدم

التفسير طبعٌ تبنّاهُ والتفسير جاء ابٌ ... وابنٌ وروحٌ الهٌ غير منقسم

المماثلة فالآب اولدهُ والروح أيدهُ ... والخالقُ تعبدهُ تماثلي الحدَم

المذهب الكلالي ومذهبي في كلامي عن تجسّدهِ ... لو لم يكن ما تخلّصنا من التهم

التشريع لمّا بدا لاح تشريع الخلاص ... لما حزنا الفدا وهدانا اوضح الأمم

تشبيه شبه بشبهين شبهان قد اشبها شبهين حين بدا ... وجودهُ في الدُنى كالنور في الظلم

المناسبة ناسوتهُ ظاهرٌ والبرّ ناسبهُ ... لاهوتهُ ظاهرٌ والسرّ كالعلم

التتميم وافى ليتقذ حوّا من خطيئتها ... وتتمّم الفضل إذ اوفى عن الامم

التوليد قد ردَّ مجدَ ابيهِ في ولادتهِ ... وقد رضي الله بعد الغيظ والندم

التردید فهو الجليل وفي ارض الجليل بدا ... جليلُ ترديدهِ في غاية الحكم

التشطير تعليمهُ عذبٌ ما شانهُ كذبٌ ... يُنبيك عن حكم تشطيرُ محتكم

الاشارة ومن اشارتهِ في وعظهِ رجمت ... جمع الخلائق عمّا في نفوسهم

الايغال قد أوغل السيرَ بالتبشير مجتهدًا ... على هدى شعبهِ بل سائر الامم

اختلاف الوزن والمعنى تؤالف الوزنَ والمعنى بشارتهُ ... لانّها قد أتت في غاية الحكم

الترشيح تبشيع آياتهِ مذ أعانت فضحت ... ضلالة الملحدين ابليسَ والصنم

التقسيم تقسيمهُ معجزات في ذرى علل ... كالبرص والصمّ والعميان والبكم

الايجاز ايجازُ اوصافِ ما أبدتْ يداهُ يرى ... في الارض والبحر والافلاك والنسم

التوارد توارد الجود فاضت من يديهِ ولم ... تكفَّ حتى الدما اجرتهُ كالديم

البسط وقد تعوّد بسط الكفّ مبتهجًا ... حتى على العود اعطاها بلا ندم

الجمع مع التقسيم جمعٌ تقسّم في آلامهِ قسمًا ... فالنفس في نعم والجسمُ في ألم

التشبيه وجسمهُ من نحول كالخلال غدا ... وقد تشبّه نور الوجه بالظلم

تجاهل العارف حتى تجاهل فيهِ الناسُ معرفةً ... قالوا بهِ سقمٌ ام بالنبال رُمي

التورية وقد توارى جمال الوجه مستترًا ... لمّا عراهُ الحيا في ضيقة الرجم

المساواة | في موته قد تساوى بالانام وفي ... شهرته اشتهر اللاهوت كالعلم.
التوهيم | جلّت قيامتهُ بالانتصار وقد ... غرّت قلوباً من التوهيم في غمم.
سلامة الاختراع | صعودهُ اخترع النهج القويم لنا ... كي نرقى منهُ بجنح البرّ والنعم.
الاضراب | ارقى على السحب بل فوق الكواكب بل ... فوق السماء باضراب عن الاكم.
الانسجام | وارسل الروح من تلقاءهُ منسجماً ... على تلاميذهِ كالالسن الضرم.
التسهيم | وقال سيروا انا معكم بلا جزع ... تسهّروا الارض وادعوا سائر الامم.
العقد | فمن تركتم خطاياهُ له تُركت ... ومن عقدتم عليهِ الحرم ينحرم.
الارداف | فاردفوا كل مأوى الحب واغطفوا ... نحو الذي مات حبّاً في خلاصهم.
التمكين | تمكّنوا من وصاياهُ وقد طفقوا ... يسعون بين الذئاب الطُلس كالغنم.
التوزيع | توزّعوا متزعين العجز وانتزعوا ... بالحزبوبَ وعداهُ بعزمهم.
الاستتباع | باذلو الحبّ بدل النفس يوم وغى ... مستتبعين الهدى بالحفظ للذمم.
الايداع | امن أودعوا الحبّ قد لذّت نفوسهم ... فيما النفوس تراهُ غاية الالم.
التصحيح | دماهمُ روت البيداء مذ نزعوا ... رواية الكفر في تصحيح قولهم.
الاشتراك | عطر السماء بدمع والدما اشتركا ... سما الربا لا سما الاجرام والديم.
التصريع | كم صرعوا حاسديهم في ردائهم ... كم ابردوا قاصديهم في صلاتهم.
جمع المؤتلف والمختلف | فالفضل مؤتلفٌ فيهم ومختلفٌ ... لانّ بطرس يسمو فوق كلهم.
الايضاح | قد قام فيهم إمام فاق اخوتهُ ... فهو الصفا موضح الاشكال للامم.
التنكيت | ايمان بطرس نور الحقّ معتقدي ... نكّت على من عمى بل عن سناهُ عمي
حسن الاتباع | من يخسر العمر والدنيا بهم ربح ... م الدارين في حبّيه حسن اتباعهم
العطف | او يعطف القلب يوماً نحو حبّهم ... او يعطفون به في حُسن دينهم.
ائتلاف اللفظ والمعنى | تؤلّف اللفظَ والمعنى رسالتهم ... تأنّف الوعظ بالآيات والحكم.
الترصيع | كم رصّعوا حكماً من دُرّ وعظهم ... كم فرّعوا نعماً من برّ لفظهم.
ائتلاف اللفظ بالمعنى | فاللفظ كالدرّ والعقيان مؤتلف ... باللفظ فيهم كمنثورٍ ومنتظم.
التسمط | استطّ عقودهمُ وارفع بنودهمُ ... واخمد حسودهم بالذل والنعم.
التفريع | فما الملائك في برّ وفي ثقةٍ ... يوماً بأطهر من تفريع برهم.
الاتساع | أطهر النفوس اتساع الرأي خُصّ بهم ... بيض القلوب حسان الخلق والشيم.

الكناية — تُحل الجسوم ومقر وحو الجفون وهي — تُكني عن النسك والاسهار والندم.
التنسيق — تنسيق مجدهم تنسيق مدحهم — توفيق سعدهم ينبي عن العظم.
الفرائد — تلقى الهياكل في اعيادهم عقدت — فرائد الدرّ من الحسان مدحهم.
ائتلاف اللفظ والوزن — تألف الوزن بالالفاظ جانسة — حسن النشائد بالالحان والنغم.
السجع — سجعي بمدحهم قد صار من قسمي — اذ فيه مغتنم في موقف الحكم.
التجزئة — جزيت من كلمي ردّيت من قلمي — ابديت من حكمي اعديت كل عم.
المدح بعرض الذم — امدحي بعرض ذمّ قد يخص بهم — لا عيب فيهم سوى إكرام ربهم.
التكميل — من قد اعدّ لهم ملكًا واكمله — مذ خصهم ان يدينوا سائر الامم.
الاشتقاق — مخلص رام تخليص العباد وقد — وافى رخلّصهم بعد اشتقاقهم.
الابداع — قد ابدع العدل في شرع سما فنما — وابتع الفضل فرعًا في حماه حمي
العنوان — وفلكُ نوح اتت عنوان بيعته — فمن يلجها نجا من لجّة العدم.
الترشيح — كم هدّ ركن ضلال حين أسّسها — وكم ترشّح منها الخير كالديم.
التلميح — تلميح انوارها امست مشعشعة — ضاهت اورشليمُ العلياء في الظلم.
الترتيب — اوحيدة جمعت قدّ الرسالة في — ترتيب انوارها للعرب والعجم.
التجريد — لي منها ماء ينابيع الحياة به — يُطفى أواري بتجريد من النقم
الطاعة والعصيان — اهل الهدى قد اطاعوا شرع بيعته — وقد عصاهُ العدى من فرط كفرهم.
التعريض — ما رام بالسيف يحمي حقّ مذهبه — ولا تعرّض للالزام والرغم.
الجمع — وداعةٌ واتضاع مع تقى ونقى — قد جمّعتهم سجاياهُ مع الكرم.
التعديد — تعديد اوصافهم للربّ يعلمهُ — وولى عظيمًا الهما بارئ النسم.
الطيّ والنشر — طيٌّ ونشر وتقريبٌ به وجفا — للغدر والودّ والافضال والاثم.
التعليل — لو لم يُقم أمّةً ملجًا لأمته — لما تعلّل انقاذي من النقم.
المجاز — بها مجازي الى باب النعيم وهي — باب السماء وبيت الحقّ والحكم.
المبالغة — وهي النجاة لكل المؤمنين وقل — كل الانام وان بالغتَ لم تلم.
الاغراق — فلو ترى توبة الشيطان ممكنةً — لأغرقتهُ بتيّار من الشمم
الغلوّ — كادت تردُّ زمانًا فيه قد سقطت — كل الانام لكي تنار بحفظهم.
التفريق — قالوا هي العرش والتفريق بينهما — للعرش موطا وهي ترقاهُ بالقدم.

التهذيب والتأديب تأديب سيرتها الحسناء يخبرنا عن حسن تهذيبها للطبع والشيم
التوشيح فان توشحت الاكرام لا عجب لانها عين تم الجود والكرم
الاتفاق من كان نسبته نعتاً لأمته فتلك انصاره حسب اتفاقهم
التطريز شغلي بتطريز مدحي فيه مفتنمي يا خير مفتنم يا خير مفتنم
الجمع مع التقسيم يداه كالبحر في تفريق ما جمعت وفيضه البحر كم روى فؤادا ظمي
الايضاح يعطي بشح وسح ثم يوضحه شح لمستغم سح لذي كرم
ائتلاف المعنى بالمعنى حلّ وغل له للمعنيين غدا تألف نحو مأسور ومحتكم
النفي والايجاب لا ينتفي منه ايجاد الجميل ولا يعطي بشح ومن يقصده يغتنم
التكرير كرر وسل شيم المستحسن الشيم المستحسن الشيم المستحسن الشيم
التوقيف وابك ونح وانتحب فارضخ وجد فأنيل فوق مسرة وابتهج واطلب وصل ورم
المحاجاة واصغ لقولي اذا حاجيت ملتثماً من جاز بحراً فهل يحصيه بالقدم
اللغز واعط ليومك ما يحتاج من اسف واطرح لما فيه تكفف حل لغزهم
الايهام من شام تلويح ايهام وجد على تحصيله وجد السلوان في العدم
حسن البيان لقد تبين لي حسن البيان وقد تظاهر الحق والبرهان كالعلم
مراعاة النظير من شام طرفي بروقاً من سناه اضت راعي النظير بدمع فاض كالديم
التدبيج وابيض أسود حظي حين دبج في صفر الخدود وبجاري مدمعي العنم
التفضيل لذاك قد جئت يا مولاي معترفاً بما تفضل من ذلي وتحتكمي
الاعتراض فلو سمحت بعفي لست معترضاً حزت النجاة وكم ساعت للندم
الاحتراس سلبت نعماك عدلاً من ذوي كسل وزدت تحترساً فضلاً على النعم
المشاكلة تشاكل الخير خيراً والمسيء اسى والشر شراً وذا الاحسان بالكرم
الاندماج فاعضد بنيك ولو ابقيت مندمجاً بذلتي غير جودك قط لم ارم
السلب والايجاب سلبت كل رجاء في الانام وقد اوجيت فيك الرجا يا عين مغتنم
الاستثناء غادرت رأدا وما استثنيت من احد الاك يا منقذي في يوم تحتكمي
المعمّى فاحنن عسى القلب يحظى قبل غايته بعاطف منك لولا نوره لعمي
الاستشهاد انا الطبيب المرجى عفو ذنبي م ابراهيم مستشهداً دمعي على الندم
التاريخ ارجوك بعد مديحي والتخلص من تاريخه ان تنجيني من الضرم

براعة الطالب | ابراعتي اظهرتهما في من طلبِ | فلا احتياجَ الى التعريج بالكلمِ
الختام | من قبل برّ حسابي يوم محتكمي | ارجو الخلاص وأعطى حسن مختتمي

ترجمة قديمة

لسيرة القديس افتيميوس

للاب بولس بيطرس البسوعي من جمعيّة الاباء البولنديين

انَّ القرن الخامس يُعدّ من اشرف واجد قرون التاريخ الكنسيّ اذ فيهِ ظهرت الكنيسة بكل قوّتها وجلالها فاتّسعت دائرة اعمالها في الآفاق وتوفّرت مشروعاتها الدينيّة والاجتماعيّة ومساعيها الخيريّة والادبيّة. وفي ذلك العصر شرّفها الله بعدد لا يحصى من كبار الرجال ومشاهير الاحبار الذين لا يزال ذكرهم حيًّا في كل انحاء المعمور. ولما برزت من مكامنها اضاليل المبتدعين اقام الله من ائمّة العلم والفضل رجالًا يعدّهم الشرق والغرب معًا مصابيح لامعة وانوارًا ساطعة كشفوا بتآليفهم سُحُب الضلال وأسّسوا الحقّ على دعائم متينة باقية الى يومنا هذا في ثباتها وقوّتها رغمًا عن حَمَلات المعاندين وغارات المناوئين. وكان لسيّاح البراريّ في هذه الاعمال المبرورة قسمٌ صالح فشيّدوا الاديرة وقدّسوا الارواح وعلّموا الوفًا من البشر ان يصرفوا همومهم عن العالم الزائل ويوجّهوا بها الى عالم البقاء. وكانوا مع ذلك يعتنون بالحراثة والزراعة وضروب الصنائع والحرف فكادوا يقتاتون الفقر المدقع والضيق المفرط. وكان السَّبق في نهج الطريقة الرهبانيّة لنسّاك الصعيد يتقدّمهم كوكب البرّيّة انطونيوس الكبير

على انَّ مثالهُ اثار بعد قليل في قلوب كثيرين من اهل زمانهِ روح الحميّة وغيرة القدوة الصالحة في جهات الشرق كالشام والعراق وما بين النهرين فاشتهر بين اولئك المجاهدة قوم من ارباب البرّ أسفرت عن فضلهم المخطوطات العديدة التي استخرجها العلماء من زوايا النسيان في عهدنا هذا. ومَن اشتهر اسمهُ وقتئذٍ في فلسطين في الاودية والصحاري المجاورة للقدس الشريف قديس عظيم طالما نوّه بصفاتهِ الكريمة واعمالهِ الجليلة قدماء الكتبة لكنَّ اسمهُ بتمادي الأيام كاد يمحي من ذهن اهل زماننا الذين يقصرون

نظرهم على الامور الحاضرة ويسهون عن خلفة ثمينة ابقاها لهم اجدادهم . ومرادنا بهذا العلَم الجليل القديس افتيميوس الذي شرَّف بلاد فلسطين بما انشأ فيها من المنشآت الخطيرة والمآثر العمرانيَّة التي من شأنها ان تكسبهُ ذكرًا مخلَّدًا في وطنهِ

ونحن نقدّم لحضرة الاب ف . ريمند جانيه من الرهبان الدومنكيين في القدس الشريف فرائض الشكر لسعيهِ بإحياء معالم ذلك الرجل العظيم في الترجمة التي كتبها آخرًا (١ فأودعها من الاوصاف اجلّها ومن الفوائد اصدقها فبيَّن احوال الرهبانيَّة والكنيسة في فلسطين في تلك الاحقاب السالفة حيث نشأت بفضلهما الاحياء العامرة التي لولا الغزوات والحروب لكانت جعلت تلك الانحاء كجنَّات عدنٍ حافلة بالسكَّان مزهرة بالعمران

اما المواد التي اخذ عنها حضرة الاب معلوماتهِ فهي من اوثق واصحّ ما بلغنا من التآليف القديمة ولعلَّ اعظمها شأنًا تاريخ وضعهُ لاعمال القديس افتيميوس كاتب بليغ ومؤرخ مدقق عاش بين رهبان القديس افتيميوس الذين عرفوهُ حق المعرفة وهو كيرلس من سيتوبوليس اي بيسان فجمع من افواه الرهبان وشهود العيان ما شاهدوهُ من اعمال وجل الله فدوَّنها بكتاب احسن فيهِ ما شاء . وقد روى ما روى بقريحة وثَّادة وبصيرة نقادة حتى اصبح تأليفهُ مرجعًا لكل المؤرخين الذين أتوا بعدهُ .

على انَّ تاريخهُ لترجمة القديس افتيميوس كانت اخذتها يدُ الضياع وبقيت مدَّة طويلة مطويَّة في دفائن الخزائن . وانما عُرف منها فقط نسخةٌ كان في القرن العاشر تصرَّف بها الكاتب اليوناني متفراست فزاد فيها ونقَّص وصفَّح وشوَّه حتى اذهب معظم رونقها وصدق لهجتها ثم وقف في الازمنة المتأخرة اصحاب النظر والتفتيش على نُسخ صادقة لم تمسَّها يد متفراست فطُبعت وكان لطبعها تأثير في معرفة اليقين من اخبار رهبان فلسطين

وقد حصلت مكتبة كليَّة الاباء اليسوعيين آخرًا على نسخة عربيَّة من سيرة القديس افتيميوس فتفحصناها فاذا هي تعريب الترجمة اليونانيَّة لكيرلس السيتوبولي توافقهما الموافقة التامَّة ولم يدخلها شيءٌ من تمويهات متفراست ومن هذا القبيل هي جديرة بالذكر

(١ هذا اسم الكتاب :

Vie de S^t Euthyme le Grand (377-473). *Les moines et l'Eglise au 1^re Siècle*, par le R. P. Fr. Raymond Génier O. P., Paris. J. Gabalda, 1909. pp. 450.

فاردنا ان نعرضها على قرّاء المشرق ونقتطف منها نبذةً رائقة تحتوي على اخبار بعض عرب البادية وتصرّهم في الجاهليّة

ولهذا الاثر مزيّة اخرى تزيده قدرًا اعني قدمهُ فانّهُ من اقدم مآثر نصارى العرب في اللغة العربيّة. نعم انّ المخطوط الذي نتكلّم عنهُ لا يترقّى عهدهُ فوق المئتي سنة الّا انّ هذه النسخة منقولة عن نسخة قديمة جدًّا كما يظهر من نسخة اخرى كُتبت على رقّ دثرت كتابتهُ الاولى (palimpseste) كان وجدهُ العلّامة تيشندرف في دير مار سابا قريباً من القدس الشريف فوصفهُ الاستاذ فلَيشر في المجلّة الاسيويّة الالمانيّة (ZDMG, I. 148—160) وهذا الرقّ نُقل الى خزانة كتب بطرسبورج الشرقيّة ومنهُ اخذ حضرة الاب جرج غراف (G. Graff) ترجمة القديس أبراميوس التي رواها المشرق (٨: ٢٥٨—٢٦٥) واستوقفت انظار العلماء. وكاتب ذلك الرقّ الراهب داود. وهو يُشبه كل الشبه من حيث صورتهِ وكتابتهِ وقدمهِ رقًّا آخر من جنسهِ وُجد في الدير نفسهِ كُتب سنة ٨٨٥ — ٨٨٦ برسم الراهب اسحاق من دير سينا وكاتبهُ الانبا انطون البغدادي الذي عُرف باسمٍ آخر وهو داود بن سينا راهب دير مار سابا (١ فوحدة الاسم وشبه الخط مع بقيّة الآثار لا تبقي شبهة في انّ الترجمة العربيّة هذه تُرقّى على الاقلّ الى اواخر القرن التاسع

ولعلّها اقدم من ذلك لانّ في آخر النسخة المصونة في بطرسبرج يقال انّ « كاتبها هو الخاطي المسكين داويذ» (ZDMG.I., 151) فقولهُ « كاتبها » يدلّ على انّ داويذ اي داود المذكور ليس هو المعرّب وانّما هو ناسخ الكتاب. ويؤيّد الامر ما وقع في النسخة من الاغلاط فانّ بعضها انسب للكاتب منها للمعرّب (٢ . مع هذا لا يمكننا ان نعرف صاحب الترجمة ولا زمانها

واذا قابلنا ما نقلهُ الاستاذ فلَيشر عن رقّ تيشندرف تحقّقنا ان النسخة الحديثة التي دخلت في مكتبة كليّة القديس يوسف تتضمّن الترجمة التي وصفها العلّامة المذكور

---

١) الطب لبيان ذلك ZDMG, VIII, 584 ; cfr. Ign. Kmetchkovski, *Arabica*, Vizantijskij Vremennik, VIII., 1907, p. 2 du tirage à part

٢) راجع في المشرق ترجمة القديس ابراميوس التي رُويت مع اغلاطها وهي تشهد على قولنا

بحرفها (١ . ولا باس ان تكون هذه قريبة العهد وتلك قديمة لأنَّ كثيرًا مـا نُقلت النصوص القديمة في مخطوطات حديثة وربَّما ضاع القديم وبقي الحديث (٢

على اننا في معارضتنا لهذه النسخة الحديثة بمنقولات فلَيشر في المجلَّة الاسيويَّة وجدنا فرقًا واحدًا وهو في عدد الفصول او الرؤوس الذي يبلغ في رقّ بطرسبورج ٥٣ راسًا وهو في نسخـة بيروت ٥٢ راسًا وليس الباب الناقص احد الابواب الاخيرة لأنَّ آخر الراس ٤٧ واوَّل الراس ٤٨ اللذين رسم فلَيشر صورتهما في المجلَّة الاسيويَّة يوافقان في نسختنا للعددين ٤٦ و٤٧ . والظاهر انَّ صاحب ترجمتنا لم ينقل في تعريبه مقدَّمـة المؤلف بخلاف نسخة بطرسبورج التي رويتها وهي عبارة عن تقدمة الكتاب من كيرلس السيتوبوليّ الى جاورجيوس الهيغومين اي الرئيس (ZDM G. I,158–159. fac–simile, p. 216) فنقص بذلك راس من نسختنا التي تبتدئ بذكر تجسُّد ابن الله وتقديمه للنفوس هكذا: « الابن الوحيد وكلمة الله الآب قبل كل الدهور الخ ». وقولنا هـذا حدس فقط لأنَّ نسخة بطرسبورج قد تلفت منها اوراقهـا الاولى وهي تبتدئ بالراس ٢٧ (٣

وعلى كل حال لا يؤثر هذا النقص في جوهر نسختنا البيروتيَّة لأنا لم نجد فرقًـا البتَّة بين المقاطيع التي رواها فليشر وما يُروى في نسختنا المذكورة . ودلالةً على ذلك ها نحن نثبت هنا عن مخطوطنا البيروتي قطعةً تلاها الدكتور فليشر الى الالمانيَّة واثبتهـا في مقالته دون رواية الاصل العربي . وهذه القطعة تتضمَّن رواية كيرلُّس لما حدث لـهُ في تصنيفه ترجمة القديس افتيميوس فيخبر انهُ كان جمع كل موادَّها واحضر كل معارفاتها الكنَّهُ بقي سنتين وهو لا يعلم كيف ينظم اجزاءها ويؤلف اقسامها ويلحم معانيها حتى تراءى لهُ في الحلم القديسان افتيميوس وسابا فافرج افتيميوس كربتهُ واشار عقلهُ بطريقة

(١ وهذا الكتاب يحتوي تراجم اخرى ايضًا منها قصَّة القديس ديونيسيوس الاربوباغي التي نقلناها في المشرق هذه السنة (ص ١١٨–١٢٧)

(٢ وفي نسختنا البيروتية بعض اغلاط عرضية لا اثر لها في نسخة بطرسبرج كابدال الدال من الذال والتاء من الثاء وغير ذلك مما ليس قطعًا كبير امر

(٣ اطلب ما نقلهُ كوتليار عن ألاطيوس cf. Allatius, cité par Cotelier, *Magne. PP. GG. CXIV*, col. 195-196)

عجيبة اعدّها الكاتب معجزة باهرة ورآها غيرهُ حلماً بسيطاً . ومما لا يختلف فيه اثنان انَّ كيرلُّس هذا يُعدُّ من ابرع كتبة تاريخ النُّساك واصدقهم لهجةً . وها نحن نروي كلامهُ بحرفهِ الواحد مع اغلاطهِ بيانًا للهجة نصارى القرن التاسع بالعربيَّة . وهذه الرواية وردت في الراس ٥٢ من نسختنا في الصحيفة ٥٤ منها قال :

« (Fol. 54r) وحيث كنت ابصر الشفا الذي ينبع من مقبرتهِ كنت اعجب في نفسي واقول أترى كيف جاز تدبير الناسوت وكيف ارضا الله بالحقيقة ابونا مار افتيميوس وكيف اتتنا نعمة الله ومن اجل ذلك جئني (جاءتني) حرارة وشهوة ان اعرف مجازه (Fol. 54v) وتدبيره لكيما اكتب عنهُ وكنت اسأل بحرص في جميع هذه البريَّة للآباء القديسين القدماء الذين كانوا في زمانهِ وفي زمان مار سابا ومعهم كانوا يتدبروا والامور التي كانت بلغتني عنها حفظتها بحرص ليس العجائب والشفاء الذي كان على يد مار افتيميوس فقط ولكن سيرتهُ وتدبير مار سابا كنت اكتبهُ في قراطيس واخلطتهُ لاني كنت احسن اصلح ذلك واضعهُ كما ينبغي . ومن بعد زمان قليل كانت السنودس العامة في القسطنطينيَّة تنظروا في امر نسطور واوريجانس فحرموا من السنودس وكان رهبان كثير يسكنوا في السيق (١ الجديد وكلهم كانوا قد لزموا اماتة اوريجانس وكانوا حرصاء على ذلك وابتعدوا من الاماتة الجامعة المقدَّسة وطردوهم من السيق الجديد وسكنوا فيهِ آباء القديسين من سيق مار سابا ومن الديارات المقدسة

« فانَّا انا بشورة ابنا يتي الاسقف خرجت من (Fol. 55r) الكنوبيون (٢ وسكنت في السيق الجديد وكان معي القراطيس التي كتبت فيها قصص مار افتيميوس ومار سابا (ولبثت) في السيق سنتين جالس في السكوت وبحرص كنت اقرا في القراطيس ولم اكن احسن ان أصلحها كما ينبغي ولا اسوّي بدوْها لاني كنت قليل المعرفة لاني لم اتعلَّم الحكمة بكلام الله وكنت غبي في لساني ولكن الاه العجائب الذي هيأ الالسنة في مواضعها وصنع الوعر سهل وهو يصلح ألسنة الخرس صنع فيَّ انا الضعيف عجب على يدي مار افتيميوس ومار سابا القديسين لانهُ لم تكون لي كتابة ولا معرفة ان اصلح ذلك تفكرت ان اترك القراطيس وكنت اصلّي واطلب بحرارة قلب من اجل ذلك

« وفي بعض الايام وانا جالس على مجلسي وماسك القراطيس في يدي نمت ونمتُ وكان ساعتين من النهار أُري لي مار افتيميوس القديس ومار سابا وكان لابسها لباس الكهنة فسمعت (Fol. 55v) مار سابا يقول لمار افتيميوس هوذا كيرلس ماسك القراطيس بيده ولهُ حرص وحرارة قلب كثير قد حرص وتعب ان يضع بدوْ (بدءًا) تقشتنا فلم يستطيع . حينئذٍ قال مار افتيميوس القوي : كيف يستطيع يكتب من اجلنا ولم ياخذ نعمة النبوة بانفتاح (بانشراح) فهو . فقال مار سابا القديس : فاعطهِ انت النعمة . فاتم لي ماري افتيميوس بذلك واخرج من كمهِ مكحلة من فضَّة ومرودٌ فوضع المرود في المكحلة ثلاث مرات وكان يشبه ذلك الزيت وكان طعمهُ احلا

---

١) السيق لفظة يونانيَّة (σηκός) معناها الحظيرة والمحلَّة والدير

٢) الكنوبيون من اليونانيَّة (κοινόβιον) معناها الدير الجامع للرهبان

من العسل بالحقيقة انما كان في معرفة بكلام الله كما قال النبي: كلامك احلا بحنكي وافضل من العسل للفم

« حينئذٍ حسستُ بالحلاوة على في وعلى شفتي وأعطيت النعمة وبديت ان اكتب بدئيًا قصة مار افتيميوس القوي وكانت النعمة تأمرني ولا اغفل على ذلك. فلمَّا فرغت من كتابها كتبت ايضًا سيرة وتدبير مار سابا في مصحف اخر وانا اطلب (Fol. 56r) اليهم بالنعمة التي اخذوا ان يطلبوا الى الله من اجلي. وانا الكاتب الشقي الذي كتبت هذا الكتاب اطلب الى الله ان يغفر لي خطاياي ولا أخزا لا هاهنا ولا في الآخرة ولكن اجد الرحمة بين يدي مجلس المسيح الذي لهُ النسبحة الخ »

ومما رواهُ كيرلس السيثوبولي في ترجمة القديس افتيميوس تدميرهُ لاحدى قبائل العرب التي اتتهُ من العراق فعمَّدها وعيَّن لها في فلسطين ليس بعيدًا عن ديرهِ مقامًا فسكنت في ذلك المكان زمنًا طويلًا وكان يدبّرها شيخها المتنصّر معها بصفة اسقف. ورواية الخبر في الرأس العاشر من حياة القديس ولعلَّ الطابع قد وقع هنا في نسختنا العربيَّة بعض اوراق حرَمتنا بدء الرواية فسدًّا للخلل نستعير الناقص من النصّ العربي من سيرة متفراست اذ ليس تحت يدنا غيرها (١

(قال) في نواحي سنة ٤٢٠ اسعر ملك الفرس ازدشير نار الاضطهاد على نصارى مملكتهِ. وامر احد امراء العرب المقيمين على حدود بلادهِ والخاضعين لدولتهِ بان يضبط المسيحيين الهاربين ويصدّهم عن المهاجرة الى اراضي الرومان. فرأى الامير جور السلطان وتراخي في الطاعة لامرهِ فسعى البعض برئيس القبيلة حتى خاف على نفسهِ من بطش الملك وولّى هاربًا مع قومهِ الى جهة الرومان واستجار بوالي الشرق المسمَّى انكنت الاول فرحَّب هذا بالوافدين وجعل شيخهم اميرًا على قبيلة اخرى محالفة للرومان (٢.

---

١) نجد ما يُعرَف من روايات حياة القديس افتيميوس في مجموع الاب ديلاهاي (H. Delehaye: *Bibliotheca hagiographica graeca*, ed. 2, nos 647-650)

٢) راجع ما ورد في تاريخ هؤلاء العرب وتنصُّرهم في مجموع اعمال الاباء لمين (PP. Mgr. Duchesne: *Eglises* ثم في كتاب المنسيور دوشان GG., CXIV, p. 612-613) (R. Génier: وترجمة القديس افتيميوس للاب جينيه *séparées*, 2e ed. 1905, p. 342-345) وللاب قاليه مقالة حسنة في هذا الشأن في اصداء الشرق (*Echos d'Orient*, XII, 1907, p. 343 et seq) *Vie de S. Euthyme*, p. 77-117

وقد زعم كيرلس السيتوبولي او متقراست الناقل عنهُ انَّ شيخ تلك القبيلة كان يونانيَّ الاصل (١ وهو يدعوهُ اسپاباط (Ἀσπάβετος) وهو غلط ظاهر لأنَّ هذا الاسم فارسيّ مركَّب من لفظتين « سپاه » اي عسكر و« پاد » اي سَنَد فيكون معناهُ سند الجيش (٢

وكان لاسپاباط ولد اسمهُ طرابون أُصيب بفالج اعيا الاطبَّاء شفاؤهُ فهذا جرى لهُ حلم كما سترى ممَّا ننقلهُ عن نسختنا واستدلَّ على القديس افتيميوس فوفد عليهِ مع والدهِ وقومهِ الى دير القديس ثاوقطسطس في وادي دبور حيث كان افتيميوس مقيماً. فكان لخبر قدوم هؤلاء العرب تأثير عظيم في قلوب السيَّاح وظنُّوا انهم يريدون غزوهم. وهنا تبتدئ الخبر في نسختنا

العرب المتنصرون

(Fol. 8r) . . . . . « فلمَّا أبصروا الاخوة كثرة البربر فزعوا. فلم (فلما) علم مار ثاوقطسطس ان الاخوة قد فزعوا نزل فلقي البربر وقال لهم: ماذا تريدون. فقالوا: نريد افتيميوس عبد الله. فقال لهم: هو ساكن (ساكت) وليس يكلم انسان الى يوم السبت. حينئذٍ اخذه اسپاباط بيدهِ واوراه (وأراه) الغلام اليائس الجنب وامر الغلام ان يخبره بقصَّتهِ. فبدأ الصبي يبكي ويقول: انا في بلد فارس ضُربت بهذه الضربة وقد عالجوني الاطبَّا والسَّحرة ولم انتفع بشيء ولكن الوجع كان يزيد. فلمَّا جئت الى هذه البلاد فان فكرةً من الله طلعت على قلبي وفيما انا اتعذَّب في بعض الليالي تفكَّرت وقلتُ: يا طرابون اين فخرة هذا العالم واين حرص هذه الاطبَّاء واين مجد الجوس وقوَّة امانتهم بالذين يعبدون اعني الاصنام واصحاب الكواكب اين الذين يستدعون (؟) الشياطين ويثقوا بهم ؟ ما ارى في شيء ممَّا هم فيهِ منفعة ولكن الله وحدهُ هو الرحوم. وفيما انا اتفكر بهذا قمت وبدموع كنت اطلب من الله واقول: يا الله القوي الجبار الذي صنع السماء والارض وكلَّما فيهم ان انت ترحَّمت على وجعي وخلَّصتني من هذا المرض المرّ انا اصير نصراني وابتعد من كل الشرور واترك عبادة الاصنام

« فلمَّا قلت هذا نمت وابصرت راهب حسن الشيبة طويل اللحية فقال لي: تُراك تتمّ

(١ (P. G., l. c., col. 612)

(٢ ما لم يشتقوهُ من لفظة « اسپا » اي فرس

رؤيا جان درك واخواتها

لك ما وعدت به ؟ ان فعلت فالله يشفيك . فقلت لهُ : كما وعدت فانا افعلهُ ان أُعتِقتُ من هذا المرض والبلاء . حينئذٍ قال لي : انا افتيميوس الذي اسكن في البريَّة شرقي بيت المقدس على عشرة اميال في وادي قبلي الطريق النازل الى ريحا (اريحا) وان كنت تريد ان تبرا فلا تتغفل ان تاتي اليَّ والله يشفيك على يدي

« فلما انتبهتُ اعلمت والدي بما رايت وسمعت فلذلك جئنا اليه بامانة فانا اطلب اليكم الّا تخفروا عني الطبيب الذي اعلمني به الله

« فلمَّا سمع الفاضل مار تاوقطسطس ذلك طلع الى مار افتيميوس فاخبرهُ بذلك وقال لهُ مار افتيميوس : ما ينبغي للانسان ان يقوم مقابل منظر الاهي . فنزل اليهم وصلى عليهم وعلى طرابون بحرص . فرسمهُ بالصليب من ساعتهِ واقامهُ صحيح . فلمَّا ابصر البربر كيف برئ من ساعتهِ عجبوا جدًّا وآمنوا بالمسيح وطرحوا انفسهم قدَّامه على الارض وطلبوا اليهِ ان يعتمدهم وطرحوا انفسهم قدَّامهُ على الارض ايضاً وسألوه بحرقة قلب

« فلمَّا ابصر افتيميوس صانع العجائب انهم من كل قلوبهم قد آمنوا بالمسيح امر ان يبنوا في المغارة بركة للمعموديَّة وهي حتى اليوم فيها يعتمدون . حينئذٍ علمهم الأمانة واعمدهم بسم الآب والابن والروح القدس وحول اسم اصبغ (١) فدعاه بطرس ولهُ عمَّد اول ومن بعدهم عمد طرابون وبقيتهم واسكنهم عنده اربعين يوماً وبشَّرهم بكلام الله واقنعهم ثم ارسلهم وليس هم من بني هاجر ولكن من بني سارة لانهم انتقوا بالمعموديَّة . فاما ماريس خال طرابون (فانهُ) لم يفارق الدير ولكنهُ تزهَّب وصبر فيهِ باقي حياته وارضا الله جذا وجميع ما لهُ دفنهُ في بنيان الدير »

ثم اردف كيرلس خبر تنصُّر خال طرابون وقومهِ بعد ان ذكر خروج افتيميوس من حبسهِ وتنقُّلهُ في براري أُخرى حتى عاد الى دير رصيفهِ القديس تاوقطسطس فقال :

« . . . فلمَّا سمع بطرس خال طرابون الذي كان القديس نصَّرهُ (١ (Fol. 11v ان مار افتيميوس قد جاء قدم اليهِ ومعهُ بربر كثير رجال ونساء وصبيان وكان يطلب ان يكلّمهم كلمة حياة حينئذٍ الشيخ القديس كلمهم واخذهم الى دير السفلي

---

١) وفي الاصل : نصرهُ

واعمدهم واقام عندهم هناك سبعة ايام من بعدها اعمدهم ثم اطلعهم معهُ الى مكانهِ حينئذٍ بطرس جاب بنايين وصنع في الجنان جب كبير لهُ فمين وهو حتى الى الان عامر وبنا في لصقهِ خبازة وبنى للشيخ القديس تلاتة قلالي وفي وسط القلالي كنيسة وكانوا يطلبون (Fol. 12r) اليهِ ان يتركهم قربه

«واماً مار اڤتيميوس محبّ الخلوة فانهُ لم يحب ان يكونوا قربه لئلا يسجسوهُ لانهُ كان يحبّ السكوت فاخذهم الى موضع وقال لهم: ان كنتم تحبّوا ان تكونوا قربي اسكنوا في هذا الموضع لتكونوا بين الديرين. فرسم لهم موضع يعملوهُ كنيسة ويكونوا في خيمهم حولها وهو يحرص يتقدمهم حتى صنع لهم قسوس وشمامسة ورجعوا الذين كان اعمدهم بدياً (بدءاً) وكانوا معهم وكثير كانوا ياتون اليهِ ويعمدهم فلما كثروا جداً صاروا محلّات كثيرة وحينئذٍ بعث ابونا القديس مار اڤتيميوس الى يوفيليوس بطريرك بيت المقدس ان يصنع لهم اسقف فبعث اليهِ البطريرك يقول له: بفرح انا افعل كلما تحب. حينئذٍ بعث اليهِ بطرس خال طرابون لانهُ كان قوي ان يدبر الانفس بمخافة الله وهو اول اسقف كان بفلسطين على محلات البدو وكانوا جماعات كثيرة ياتون الى مار اڤتيميوس (Fol. 12v) فيعمدهم ويعلمهم كيف يعبدون الله ويعملون رضاه. فالى هاهنا فرغ قولنا من اجل البدو الذين آمنوا» انتهى

وقد عُرف الحيّ الذي افرزهُ القديس اڤتيميوس للعرب المتنصّرين باسم يوناني (παρεμβολή) معناه المحلّة او المعسكر. وقد شيّد لهم القديس كنيسة وبعض ابنية لا تزال آثارها قائمة الى يومنا وقد توفّق الى اكتشافها حضرة الاب فدرلين (R. P. G. J.. Federlin) رئيس مدرسة القديسة حنّة المعروفة بالصلاحيّة في القدس الشريف(١ وقد كان دليلهُ في بحثهِ عن تلك المحلّة تاريخ كيرلس السيتوپولي نفسه فانّ الكاتب المدقّق كان عيّن المكان بين دير القديس تاوقطسطس في وادي دابون وسيق القديس اڤتيميوس غرباً على ضفّة وادي المدوّرة اليمنى عند بئر الزرعة. فقد وجد حضرة الاب فدرلين في ذلك الموقع صواناً اهليلجيّ الشكل يقيس نحو ٨٠ متر ويحيط بارض مختلفة الهيئة

(١ اطلب مجلّة الارض المقدسة (La Terre Sainte, 1897, p. 178-181)

وبين الاخربة الباقية هناك يُرى صهريج مطريّ ثم اساس بناء كبير طولهُ نحو ٢٢ متر في عرض ١٥ مترًا . ولا يبعد انَّ تحت كان مقام اولئك العرب الذين نصَّرهم القديس افتيميوس

وقد اشتهر اولئك المتنصِّرون في الكنيسة ويعرف اربعة من اساقفتهم . وكان اوَّلهم بطرس السابق ذكرهُ وهو الذي امضى اعمال المجمع الافسسي سنة ٤٣١ ولقَّب نفسهُ باسقف محلَّة العرب . على انَّ هذه الاثار الطيِّبة لم تدم زمنًا طويلًا في برِّية فلسطين فانَّ عدوّ الجنس البشري اثار على المتنصِّرين من العرب قبائل أُخرى من المشركين فغزوا تلك المحلَّة واخربوها كما ذكر كيرلس في تاريخهِ ايضًا حيث قال :

(Fol. 43) « وفي زمان اسطاسيوس الملك خربوا العرب بيوت البربر الذين كانوا تنصَّروا على يدي مار افتيميوس فاما رؤساءهم فصنعوا لهم بيوت جدد وبنوا كنيسة عند مارطيريوس وايضًا رجعوا اليهم العرب فسبوا بعضهم وبقيتهم تفرَّقوا في القرى وكان في ذلك الزمان في هذه البلاد شدَّة من البربر »

هذا ما رأينا نقلهُ عن النسخة التي نحن بصددها . وفي الختام نتمنَّى ان يعود التمدُّن ثانيةً الى تلك القبائل الشاردة فيحيا العمران وتنبعث الفضائل التي ازهرت مدَّة في تلك البادية القاحلة والله السميع المجيب

الريّ في بلاد ما بين النهرين

لحناب المهندس ادمون افندي بشاره

في اواسط نيسان من السنة ١٩٠٥ نشر الاختصاصي الشهير السير وليم ولكوكس (Sir (W. Willcocks تاليفًا عاليًا في اللغة الانكليزيَّة بحث فيهِ عن الريّ في بلاد ما بين النهرين . وقد صدَّر الكتاب صاحبهُ بلائحة تاريخية واقتصاديَّة بيَّن فيها باجلى بيان ما خصَّ به الخالق تلك الانحاء من الثروة الزراعيَّة والخصب الغريب وكان جناب الكاتب زار جانبًا كبيرًا من تلك السهول الواسعة في شتاء سنة ١٩٠٤—١٩٠٥ فتحقَّق عيانًا صحَّة ما رواهُ عنها قدماء المورِّخين . فكان لنشر هذا التاليف وقع حسن

لدى الذين يهتمون بترقي تركية لكن صاحبه البارع لم يطبع منه وقتئذٍ الا نسخاً قليلة

فلما أُعلن بالدستور في تموز السنة المنصرمة صرفت الدولة العلية بنظرها الى بلاد ما بين النهرين لتستثمر كنوزها الزراعية واقبل كثيرون على مطالعة كتاب السير ولكوكس لعلمهم بمقدرته. لكنهم شكوا ندرته. فذلك ما حدا بنا الى طلب الرخصة من مؤلف الكتاب لتجديد طبع تأليفه بعد نقله الى اللغة الفرنسوية وهي اللغة الغالبة بين أدباء تركية على اختلاف اجناسهم. فاجاب السير ولكوكس الى دعوتنا بلطفه المألوف وبادرنا الى العمل حتى انتهينا منه منذ عهد قريب (١)

ولعلنا بارتياح القرّاء الشرقيين الى معرفة احوال بلادهم احببنا ان ندوّن لهم في صفحات قليلة لُباب هذا الكتاب الخطير

*

قرّر السير ولكوكس ان مساحة بلاد ما بين النهرين التي يمكن سَقيها بالري تبلغ ١٣,٠٠٠,٠٠٠ فدّان اعني ضعف المساحة التي تُروى بمياه النيل في مصر. وتلك جزيرة كما دعاها العرب معدّل طولها ٧٠٠ كيلومتر في عرض يختلف بين ١٠ ك الى ١٠٠ ك يسقيها نهران فائضان دجلة والفرات مع كل ما يصبّ فيهما من الروافد. وهي اشبه شيء بمثلث (ا) مصر الشمالي لها زاويتان شمالاً عند مدينتي هيت للفرات وبلد لدجلة ينتهيان الى زاوية جنوبية بمصبهما بحر العجم. ويبلغ طول دجلة من بلد الى البحر ١٠٤٠ كيلومترًا على التقريب وطول الفرات من هيت الى مصبّه ٩٣٠ ك تقريباً اما منحدر النهرين فهو كمنحدر النيل ١/١٣٠,٠٠٠. والنهران يجتمعان عند بلدة القرنة وتختلط من ثمّ مياههما على طول ١٦٠ كيلومترًا وذلك ما يُعرف بشطّ العرب

وقد يتراوح عرض الفرات بين ٢٥٠ الى ٤٥٠ مترًا ويبلغ اعلى سطح مياهه فوق الحضيض ثلاثة امتار ونصفًا. كما انّ سرعته تختلف ايضاً ومعدّلها مترٌ واحد في الثانية وفي وقت فيضانه يرتفع سطح المياه ٥٠ سنتمترًا فوق ضفتيه. اما كمية مياهه فيبلغ

(١) وهذا عنوان الطبعة الجديدة: Sir Willcocks: IRRIGATION DE LA MESOPOTAMIE, traduit de l'anglais par *Edmond Béchara Ingénieur* E. L. L., Le Caire, 1909. p. 171.

معظمها في نيسان الى ٢٥٠٠ متر مكعّب في الثانية ثم تنقص حتى تبلغ اقصى درجة نقصها في ايلول وتشرين الى ٣٠٠ متر مكعّب فقط

ولدجلة عرض يختلف في رحب ضفّتيه وضيقهما على حسب النواحي التي يقطعها. ففي شمالي بغداد ربّما اتّسع عرضهُ الى ان يبلغ في بعض الامكنة اربعة كيلومترات. واذا انحدرت الى كاح صالح وما بعدها وجدتهُ لا يزيد على خمسين مترًا. الّا ان معدّل عرضهِ يتراوح بين ٢٠٠ و٤٠٠ متر. ومعظم ارتفاع سطح مياههِ ستّة امتار وسرعتهُ المتدلة نحو متر واحد في الثانية. واذا حان وقت الفيضان علت المياه فوق ضفّتيهِ الى ٢٥ سنتمترًا فقط وذلك قليل بنسبة فيضان النيل البالغ مترين ونصفًا. امّا كمية مياه دجلة في الثانية فيبلغ معظمها في نيسان الى ٤٠٠٠ متر مكعّب ثم تهبط في ايلول وتشرين الى ٢٥٠ مترًا ويفيض النهران معًا ويغيضان معًا

والعلم انّ مياه دجلة والفرات مستوحلة يختلط بها من الموادّ الغريبة ما يفوق على النيل. واكثر ما يمتزج بها املاح كربونات الكلس والمغنيسيا

واذا قسنا ريّ سهول ما بين النهرين على قياس الري المصري نال كل فدّان ٢٤ مترًا مكعّبًا في اليوم اي في ٢٤ ساعة

وعليهِ لمّا كان مبلغ كمية مياه نهري الفرات ودجلة في آخر الصيف ٣٠٠ متر مكعّب للفرات و ٢٥٠ لدجلة في الثانية كان مجموعهما ٥٥٠ مترًا مكعّبًا في الثانية فينتج من ذلك انّ المياه في ذلك الفصل لا يمكنها ان تسقي اكثر من ٢,٠٠٠,٠٠٠ فدّان. امّا في وقت الفيضان حيث يبلغ مجموع كميّة مياه النهرين ٦٥٠٠ متر مكعّب فيستطيعان ان يسقيا ٣١,٠٠٠,٠٠٠ ف تقريبًا

فينتج من هذا الحساب انّ نهري الفرات ودجلة في ايام الصيف لا يكفيان لسقي الاراضي التي يمكن تخصيصها بالفلاحة اعني ١٣,٠٠٠,٠٠٠ فدّان بل لا يمكنهما ان يسقيا ثلث هذه المساحة (٤,٣٠٠,٠٠٠) كما يجري في مصر في الشهرين اللذين تهبط فيهما المياه وتغيض. لكنّ هذا الامر يمكن استدراكهُ باقامة خزانات يشيدونها قريبًا من النهرين كما هو اليوم جارٍ في مصر لانّ مياه ما بين النهرين اذا جُمعت وخُزنت في احواض واسعة كفت لتقوم بحاجات زراعة تلك البلاد وريّها

وليس هذا الامر حدسًا وتخمينًا بل هو حقيقة راهنة تشهد عليها الشواهد التاريخيّة

فأنّ اهل ما بين النهرين كانوا اقاموا ترعاً وخزنوا المياه للري المتواصل فجعلوا بلادهم كجنّة غنّاء تزينها الخضرة والمزروعات كما روى المؤرخون منهم بلينيوس واميان مرقلان وابن سيراييون وذكر الرواة قبلهم كهيرودوت وغيره انّ الجزيرة كانت تغلّ ٢٠٠ و ٣٠٠ بدل الواحد . والسير ولكوكس بسياحته الاخيرة في تلك البلاد قد تبيّن الامر بما لقيه من آثار احواضهم وخزاناتهم المائية حتى قال عنهم انّهُ لم يبلغ احد مبلغ الكلدان في حسن ابنيتهم لجمع المياه وتوزيعها على انحاء بلادهم . ولو قصدت الحكومة اليوم تحسين الزراعة في تلك الجهات يكفيها أن تُصلح الاحواض القديمة ومجاري المياه في عهد الكلدان

ولتحقيق هذه الغاية وتقريب العمل بها قد اقتسم السير ولكوكس ما بين النهرين خمسة عشر قسماً ودرس كل قسم منفرداً مع ما يقتضيه من الاصلاحات والأدوات المائية فمنها ما يحتاج الى ادوات ترفع المياه كالدواليب والمنجنونات ومنها ما يقضي بعمل خزانات واحواض في مكان الخزانات القديمة ويلزم بعضها حفر قنيّ او مجارٍ بقناطل الى غير ذلك من الاشغال التي لو أُجريت باعتناء لأعادت لتلك البلاد رونقها في ايام البابليين

ومن الفصول المفيدة التي دوّنها السير ولكوكس في كتابه الفصل التاسع بحث فيه عن الظواهر الجوّية في انحاء ما بين النهرين . وممّا قرّرهُ انواع المزروعات التي يمكن استنباتها في زمن الصيف . وقد اثبت هناك انّ معظم الحرارة في بغداد يبلغ الدرجة ١٠٧ من المقياس المئوي وذلك في غاية آب . ثم يهبط الميزان حتى يبلغ منتهى هبوطه في كانون الثاني فيكون معدلهُ درجتين تحت الصفر . وهكذا يمكن تقسيم الزراعة في تلك الاصقاع على قسمين مختلفين موافقين لفصل شتوي وفصل صيفي

فالفصل الشتوي يمتد من تشرين الثاني الى نيسان لا يتجاوز معدّل حرارته ٢٣ ويكون هبوط المطر فيه نحو ١٢ يوماً وكميّة مطره ٢٠٣ ملمترات امّا الفصل الصيفي فيبتدئ في ايار وينتهي بتشرين الاوّل فحرارتهُ فوق الدرجة ٢٥ من المقياس المئوي . اما زمن مطره فيومان فقط وكميّة مطره تسعة ملمترات . فيكون مجموع ايام المطر سنوياً ١٩ يوماً وكميّة مياهها ٣١٢ ملمترا وذلك لا يكاد يكفي لسقي واحد في كل بلاد ما بين النهرين

ثم انتقل السير ولكوكس الى ذكر الحراثة في بلاد الجزيرة فاستند الى احد كبار

الزراعيين في عهدنا يُعدّ قولهُ حجّة من هـذا القبيل وهو المسيو فوادِن (Foaden) الذي دقّق النظر في الزراعة المصريّة. فبنى السير ولكوكس على قولهِ ما يأتي:

١ انّ سهول ما بين النهرين تصلح لزراعـة كلّ النباتات التي تزكو وتنمو في الجهات الواقعة ما تحت خطّ الاستواء.

٢ انهُ لمكن ان يُزرع القطن في تلك الاملاك في اوان الصيف . ولعلّ قصب السكّر نفسهُ ينمو ويخصب فيها

اما القطن فان شروط التربة واحوال الجوّ تضمن النجاح لزراعتهِ . اذ يجد القطن في تلك الجهات حرارةً كافية لنموّهِ مع ثبات الهواء على درجة معتـدلة من الحرارة وعدم تقلّب الاحوال الجويّة بغتةً

ولتربة تلك البلاد خواصّ جديرة بالزراعة فانها خفيفة يغلب عليهـا المركّبات الكلسيّة والحوّاريّة ويدخلها كثير من العناصر المخصبة كالازوت والحامض الفسفوري والبوطاسًا على ما ظهر للكيمويين بعد تحليل امثلة عديدة من مركّبات التربة في جهات شتى من بلاد ما بين النهرين . والكلس في انحاء الجزيرة متوفّر ولا يمكن تحديد فعلهِ في زراعة القطن الّا انهُ من الاكيد انّ بعض الاقطار التي زاد كلس ارضها على كلس ما بين النهرين اخصبَ قطنها ولم يصبهُ ضرر بذلك . لا بل يرتأي بعض ارباب الزراعة انّ وجود الكلس في الاراضي يجعل تربتها اكثر تفتّتًا واسهل حراثة من سواها

اما قصب السكر فانّ هواء بلاد ما بين النهرين موافق لاستنباتهِ الّا انّ المسيو فندن يزعم انّ اراضي ما بين النهرين لا توافقهُ . على انّ زراعتهُ نامية في جهات بَغداذ والتربة هناك غنيّة بموادّها الكلسيّة

وقد ختم السير ولكوكس تقريرهُ برصد النفقات اللازمة لتلك الاصلاحات . وقد بنى حسابهُ على ما صرفهُ المصريّون في مصر لريّ وادي النيل مع مراعاة الاحوال في بلاد ما بين النهرين كهوادة اجرة العملة ونقل السلع . وقد افضى بهِ الحساب الى نتائج اوضحها في كتابهِ بكل تفاصيلها عن ناحيتين من تلك الجهات ومفاد تلك الايضاحات انّ نفقات الاعمال لريّ بلاد ما بين النهرين كاقامة السدود وحفر القني وابتناء الاحواض وغير ذلك من الاعدادات تختلف بين ١٣ الى ١٦ جنيه في كل فدّان . وهذه الارقام مبنيّة على فرض انّ الاعمال تمتدّ الى كل مساحة الاراضي المنويّ ريّها واستفادة النصف

منها فقط. امّا اذا عمّ الريّ كل الجهات فانّ تلك الكُلَف والنفقات سوف تقل حتى لا تتجاوز كُلفة الفدّان الواحد من تسعة الى احدى عشرة جنيه

وعلى رأي جناب المفتش انّ سهول ما بين النهرين بامتداد الريّ اليها سوف تغلّ في السنة قيمة ثلاث جنيه بكل فدّان بعد اداء كل النفقات ودفع الميري . بل يظنّ انّ هذا الربح سوف يكون اعظم وانّما قدّرهُ على نصف ما تغلّ اراضي مصر التي يساوي الفدّان منها ١٢٠ جنيه. ولسنا لنبالغ لو قلنا انّ الفدّان في ما بين النهرين سيبلغ ثمنهُ ٥٠ جنيه

امّا المصاريف السنويّة التي تقتضيها تلك السدود والقنيّ لاصلاحها وترميمها ونظارتها فانّها تقدّر بجنيه ٢٠١ لكل فدّان وهي في مصر دون ذلك

وممّا حسبهُ ايضاً بالتخمين السير ولكوكس ما تكلّف سهول بلاد ما بين النهرين لو ارادوا اصلاحها كلّها وتجهيز اقسامها للريّ والزراعة ثم الربح المأمول من تلك الاصلاحات

قال لو افترضنا انّ الاعمال المتوي اجراؤها لاصلاح ١٣,٠٠٠,٠٠٠ فدّان لا تفيد الّا نصف هذه المساحة اعني ٦,٥٠٠,٠٠٠ فدّان وان معدّل الفدان يكلّف جنيه ١٤,٥ فيكون مجموع النفقات ٩٤,٢٥٠,٠٠٠ جنيه. امّا الربح الخالص فاذا فرضناهُ ٣ جنيه في الفدّان بلغ الربح السنوي ١٩,٥٠٠,٠٠٠ جنيه وان خصمت من هذا المبلغ تكاليف الاصلاحات السنويّة والمصاريف الخفافة لترميم القنيّ وبقيّة الابنية اعني ٢,٦٠٠,٠٠٠ بقي الربح الخالص ١٦,٩٠٠,٠٠٠ اي بالنسبة الى راس المال ١٧ ٪ وهو اميري ربح بالغ من شانهِ ان يبعث الحميّة والنشاط في قلوب الشركات المالية

اما الدول فانّها تنال من هذا العمل ارباحاً طائلة فمن ذلك كما قلنا الضرائب على تلك الاراضي وهي تبلغ ٦,٥٠٠,٠٠٠ جنيه ثم انّ قسماً كبيراً من تلك السهول اعني ٦٠ ٪ هي ملك الدولة فيكون الربح لها وحدها فترى من ثم ما يصيب من الجدوى والارباح من هذا العمل العظيم اذا ما خرج الى حيز الوجود فعلى ارباب الامر ان يساعدوا هذا المشروع غاية جهدهم بكل ما امكنهم من الوسائط وذلك بان يدعوا الى معونتهم سكّان تلك البلاد من اهل المدن والقرى والاكراد والقبائل فينشطوهم ويُكثروا شغلهم ويضمنوا لهم معاشهم سواء كان بالاجرة اليوميّة التي يكسبونها او

بامتلاك قطعة من الارض يهتمّون بزرعها . وبهذه الواسطة يعود الامان لتلك النواحي المستولى عليها الخراب وتتوفّر ايراداتها

هذا ما استخلصناهُ من الفوائد من كتاب السير ولكوكس . وفيهِ غير ذلك من المعلومات ما يطول شرحهُ كافادات عديدة وتفاصيل عن نقود ما بين النهرين واقيستها واوزانها وعن تدبير ماليّتها وعن ميزانية ولايتي بغداد والبصرة وضرائبها وشؤون اهلهما (وقد جعل عدد نفوس ولاية بغداد ٨٥٠,٠٠٠) وعن تجارة تلك الانحاء ومواشيها وغير ذلك ممّا يجعل هذا الكتاب من اجلّ واخطر ما وضع في هذه الازمنة عن ذلك القطر الذي عرفت الدول القديمة عظم شانهِ فلم تزل تتنازعهُ وتطمح الى ملكهِ

(المشرق) ونحن في ختام هذه المقالة نشكر جناب المهندس ادمون افندي بشاره على نقلهِ هذا الكتاب الى الفرنسويّة وعلى تلخيصهِ اجلّ مواضيعهِ لقرّاء مجلّتنا متمنين لعملهِ رواجاً واقبالاً

نخبة

من امثال القس حنانيا منير

بقلم جامعها وشارح غريبها عيسى افندي اسكندر المعلوف اللبناني (تابع لما سبق)

تشابيه (تابع)

مثل القنديل يحرق حالهُ ويضوّي (١ على غيره = مثل المضيّع حارة خالته ان وجدها بيغني وان ما شافها (٢ بيغني = مثل الذي بيغني بالطاحون (٣ = مثل الاطرش بالزفّة (٤ = مثل السطل (٥ بلا علاقة = مثل الخرج على الكتاب = مثل الحنفسة في

---

١) يضوّي عند العامّة بمعنى يُضي وهي تسهيل يضوّئ

٢) استعمال العامّة لشاف بمعنى نظر كثير شائع

٣) والمعنى ان من يغني بالطاحون لا يمكن لاحد ان يسمعهُ لفرقعة حجارة الرحى

٤) الزفّة عند العامّة حفلة العرس وهي كثيرة الاستعمال عندهم والمعنى ان الاطرش لا يسمع شيئاً مما يجري في حفلات العرس

٥) السطل فارسي معرّب وهو اناء من نحاس لهُ علاقة كنصف دائرة مركبة في عروتين مثبّتين على جانبي اعلاه . ويضرب هذا المثل لمن لا نفع يرجى منهُ ونحوه

المشاقة (١ = مثل اللفتة على الكافر = مثل الحداد بلا فحم = مثل الجيز بالقرعة (٢ = مثل الدبور بالحاية (٣ = مثل الشوكة بالعين = ثلاثة اشياء تطوّل العمر الدار الوسيعة والفرس السريعة والامرأة المطيعة = تحايد جهدك من الطقّ والنقّ والبق (٤ = كلّ كره واشرب كره ولا تعاشر كره (٥ = اختر من العجل الورق ومن اللحم المرق ومن التين الفرق = مثل الذي يبغي بالحابية = اهرب من الاقرع النحسي والاعور الحصي والاشقر الدبسي (٦ = قد يصعب على الزبيب الكمش والنار الحكش والعجوز اللكش (٧ = اضرب الطينة بالحيط ان ما لزقت بتأثر (٨ = مع السوق سوق = اذا كنت بين اثنين لا تبالي = اذا كنت بين العوران اعور عينك = ما دمت سدّان الزقّ ومتى صرت مطرقة اطرق (٩ = زمان الاوّل تحوّل = كل زمان وله دولة ورجال = كل وقت ينطي حكمه = الذي يمتاز النار يكمشها بايديه (١٠ = بعدما كانت ستّها صارت تطبّل في

---

١) المشفة دويبة منتنة والمشاقة من خيوط الحرير الغليظة والمعنى ان شيئاً قبيحاً يكون في شيء جميل

٢) الجيز عند العامة مبدلة من كلمة زبز للدويبة تصوّت في الشجر أخذ اسمها من صوتها. والقرعة واحدة القرع لثمر انبات المعروف كانت تتخذ لوضع النبيذ وبعض السوائل قبل كثرة الاواني الزجاجية. والمعنى ان فلاناً حاثر مثل الزبز الذي دخل القرعة ولا يجد لهُ منها مناصاً

٣) الدبّور عند العامة اسم للزنبور وهو هامّة معروفة اكبر من النحلة والزانطة لونها احمر والحاية اناء كبير من فخار يتخذ لوضع النبيذ ونحوه من السوائل وهو بمعنى المثل السابق

٤) تحايد عند العامة بمعنى جدّ. وانطق صوت الوقوع. والنقّ صوت البكا ونحوه. والبقّ الفرقعة في الماء ونحو ذلك

٥) الكره المشقّة وكل ما اكرهت نفسك عليه والمعنى كل واشرب ما تكره ولا تعاشر من تكره

٦) يريد التطيّر من هؤلاء الثلاثة

٧) تقول العامة كمّش اي قبض يده والكمشة ملء القبضة. وحكش النار عندهم اذا حركها لتزيد اشتعالاً وما يتخذ لذلك يسمّى المحكشون والمحكاش. ولكشهُ عندهم بمعنى ضربهُ بيده او دفعهُ بذراعهِ ونحو ذلك

٨) ويروى عندنا اليوم اضرب الطينة بالحيط ان ما لزقتم يلزق اثرها ولزّق بمعنى لصق كما لا يخفى

٩) ويروى لهذا هكذا: ان كنت سدّان الزقّ. وان كنت مطرقة اضرب. واطرق بمعنى احتمل. والسدّان عند العامة تحريف سندان وهو آلة ثابتة يُطرق عليها الحديد فارسية الاصل

١٠) اي من يحتاج الشيء يحتمل مشقّة الحصول عليهِ

عرسها (١ = خيار الحاجه تعجب صاحبها = كل قطعة ولها لباس = كُلْ ما يعجبك والبس ما يعجب الناس (٢ = ما هو جيّد لك جيد لغيرك = شوف الزبون واعطيه شكله (٣ = عبد الله والمفتاح بيده

الكتابة

بيكون القلم بايده ويكتب حالهُ من المقترين (٤ = من كان علمهُ في كتابه كان غلطهُ اكثر من صوابه = ما كُتب فقد كُتب = ما من المكتوب مهروب = يا عبدي لا تتحيَّر المكتوب ما بيتغيَّر = اكتب ولا تقابل كبّ على المزابل (٥ = الكتابة نصف المشاهدة = رؤيا السطور كرؤيا الوجوه (٦

مختلفات

لا تقول للحلي صلّي ولا للمغنّي غنّ (٧ = خلّيتُ اصلّي حتى حصل لي . فلمّا حصل لي بطّلت اصلّي = يجبّ الرفعة ولو كان على الخازوق = ما هو موقفنا عن السفر الّا الحنا (٨ = الذي فيه الله يعافيه (٩ = قالوا للجوعان: اثنين باثنين كم ؟ قال: هم

---

١) ويروى لهذا هكذا: من بعد ما كنت بيّدها صرتُ اطبّل بعرسها . والستّ بمعنى السيّدة والبيّد بمعنى السيّد وهما عاميتان

٢) ربما اخذ هذا المثل من قول الشاعر وان الشاعر عنده بقوله:

ان العيون رمتك اذ فاجأتها وعليك من شهر الثياب لباسُ
اما الطعامُ فكل لنفسك ما تشا واجعل لباسك ما اشتهاهُ الناسُ

٣) الزبون عند العامة بمعنى الحَريف اي الذي يماملك بحرفتك ويستعملونها بمعنى الصاحب ايضاً

٤) ويروى لهذا هكذا: يكون الدفتر بايديه ويكتب حاله من المقطعين . والمقطعين عندهم بمعنى الباخسين والمحتاجين الذي ليس لهم من يعولهم فكأنهم انقطعوا عن الناس ويقال ايضاً المقطوعين بمعناها

٥) اي ان من نسخ ولم يقابل على الاصل ذهب تعبهُ سدًى

٦) تستعمل العامة الرؤية بالبصر بمعنى الرؤيا بالحلم

٧) ويروى عندنا اليوم هكذا: عمرك لا تقول للمغنّي غنّي

٨) ويروى في ايامنا هكذا: ما هو مقصّرنا عن طلوع الجرد الا الحفا . والجرد بمعنى الجبل الوعر ولعلّها تحريف الصَرْد او انها مشتقة من الجَرْد لقلة الشجر فيه

٩) قول العامة: فلانٌ فيه يقوم . والذي فيه . بمعنى يقدر يقوم والذي يقدر فتكون عندهم كلمة « فيه » بمعنى يقدر

اربعة ارغفة = الشبعان بيفت للجوعان فتا بطي = الذي عنده بهار يدوش على الحبيزة (١ = امّا شيْ يصلح امّا تركه اصلح (٢ = ان طعمت اشبع وان ضربت اوجع

الشراب

شمّ لا تذوق تبّت لا تتمع = فرح في الفم عزا في البطن (٣ = قعده بمكنة خير من اكلة (٤ = ايش اكلت حتى اشرب = الدنيا بلا شراب خراب = على حجة الورد يشرب العلّيق (٥ = ان كنت خبير اشرب وديرو (٦ = حدا بيخلي النهر ويشرب من الساقية = الذي بيشرب النهر ما بتغصّه الساقية = البير الذي تشرب منه لا ترمي فيه حجر = قال: شرب الجرّة بيعفي الرقبة. قال: هذا تسلاية للذي ما عنده ابريق (٧

الضعيف والقوي وما بمعناهما

قال: الطرمس اطيب من اللوز. قال: هذه محارفة على مراضاة الاولاد (٨ = الذي ما يجي بعصا موسى يجي بعصا فرعون (٩ = الحكمة ماح الارض = العصا من الجنّة (١٠ = الزيت ما بيطلع الّا بالمعصار = ضعيفين قبال قوي = مكسورين بصحيح = الكثرة بتغلب الرجال = من استهتر بالرجال براس اللفت يُقتل (١١ = اعرض بشبّ

---

١) اي من كثّر الشيْ عنده انفقهُ جزافًا. وبمعناه من امثال عامتنا لهدنا: كثرت الزبدة على العرب فسحت بها دقورها

٢) ويروى اليوم بابدال كلمة امّا بقولهم: يا. وهي بمعناها

٣) مفهوم هذا المثل ان كثيرًا من المآكل لذيذة في الفم عسرة على المعدة. وسرّ منشا ان العزا عند العامة بمعنى المأتم فهي بمقابل الفرح

٤) المكنة هنا بمعنى الثبات اي قعود بثبات خير من الاكل

٥) تقول العامة: على حجة فلان اي لاجلهِ او بسببهِ ونحو ذلك. والمعنى ان ثبات العلّيق الشائك يجاور الورد فاذا سُقي الورد شرب هو. اي ان الجار ينتفع احيانًا من جاره ونحو ذلك

٦) اي ان كنت خبيرًا اشرب الكاس وأدرها على الجلّاس

٧) عفى بمعنى غلّظ والعفي الغليظ وكل ذلك عند العامّة. وتسلاية بمعنى تسلية عندهم

٨) المحارفة عند العامة بمعنى الاحتيال ونحو ذلك

٩) المعنى ان من لا ينقاد بالرفق ينقاد بالقساوة

١٠) المعنى ان العصا تؤدّب وتفيد

١١) استهتر بمعنى استهزأ عند العامة اي من استهزأ بالناس ولم يبالِ بهم قلموهُ براس اللفت مع لينهِ وصغرهِ

وقاتل باختيار (١ = عقل الكبير كبير = يد الحرّ ميزان = الذي ما له كبير يشتري له كبير = كل صغير انتشا باس الكبير يده (٢ = يطعم الجوز الذي ما لـه اسنان = خذ اخبارهم من صغارهم (٣ = اذا غضبت على قوم اجعـل كبارهم صغارهم = اذا اردت ان تجرّس رجّال جيلْ عليه مرا واذا اردت ان تجرّس مرا جيل عليها صبي (٤ = جيل عبّاس على دبّاس تَرَ العجب = اعطِ الريح لابو زوبعـة (٥ = اعط القوس باريها واسكن الدار بانيها = الذي ما يغار يكون حمار (٦ = تينة قدّام تينة بتستوي (٧ = الكفر بالتشبّـه = عاشر القوم اربعين يوم بتصير منهم (٨ = حطّ قدمك على قدم السعيد بتسعـد = رزق الناس على الناس ورزق الكلاب على الجانين = الناس تبع الناس = الناس بالناس والكل بالله = الذي ما يسمع من الناس ما هو من النـاس = اكبر منك بيوم اخبر منك بسنة = من طاع هواه بلّغ عدوّهُ مناه = انصحه من بكرة للظهر فان انتصح كان والّا فاعكسهُ من الظهر للمسا = شاور اكبر منك واصغر منك وارجع لشور عقلك = لا تدخل للحضيرة الّا وانت نذير (٩ = الذي مـا بيطيع ما بيطاع = من اطاع الله طاعَتْهُ الخليقة = الطاعة حياة والمعصيـة موت = تخرب بشوري ولا تعمر بشورك = كل من بيزرع حقله بعقله = كل من عقله براسه بيعمل خلاصه = كل من بيفتش على صالحه = كل من بيشدّ الحاف صوبه (١٠ = كل من بدّه

---

١) اي اظهر لعدوّك الشاب لترهبهُ وعند المقال ارسل لهُ الشيخ لانهُ عندك

٢) انتشا بمعنى ترعرع ونشأ . وباس بمعنى قبّل وذلك عند العامة

٣) ويروى لهذا هكذا : اكشفوا اسرارهم من زغارهم . اي صغارهم

٤) جرّسهُ بمعنى شهر امرهُ وحقّرهُ ونحو ذلك . وجيّل بمعنى ضع مقابلهُ ونحو ذلك . والمرا عند العامة تعريف المرأة

٥) اي سلّم الامور لأربابها

٦) اي الذي لا يغار على عرضهِ ونحوهُ لا يكون حسّاساً

٧) فتستعمل العامّة استوى الثمر والطبخ ونحوهُ بمعنى نضج والمعنى ان الامور تتمّ شيئاً فشيئاً

٨) ويروى لهذا هكذا : عاشر القوم اربعين يوم بتصير منهم .

٩) الحضيرة عند العامة ساحة البلد حيث يجتمع السكان . والحضيرة في اللغة الفُصحى بمعنى القوم المجتمعين

١٠) اللحاف ما يتغطى به النائم وهو معروف . وصوبه اي لجهتهِ وتقول العامّة لهذا مثل آخر بمعناهُ وهو : كل من يشدّ لصوب صدرهُ . والمعنى ان كلًّا يطلب النفع لنفسه

قضا مصلحته (١ = كل من يبغي على وجه = كل طير وله بومه وكل قرد له جزير (٢ = كل الدروب بتودّي للطاحون = كل شي ما ينبع بيخلص (٣ = كل طلعة قدّامها نزلة = كل قصير متكبّر = كل طويل هبيل (٤ = كل اقرع جكر = صباح اليهود ولا صباح الاجرود (٥ = كل كوسة شيطان (٦ = كل محجوب محبوب = كل جديد له لذّة = كل عود فيه دخان = كل قبيلة لها هبيلة = ما كل مدّور جوز ولا كل مطاول موز (٧ = ما كل الزلقات زلابية (٨ = ما كل من صف الصوافي قال انا حلواني (٩ = لو كل من تناهى رعاها كانت المرا بتقناها (١٠ = ما بيرشح الظرف الّا بما فيه (١١ = الظرف الذي ما ينتفخ بيكون معيوب (١٢ = هذه الصفاوات ما بتعبي ظروف (١٣ = زاد واحد يكفي اثنين (١٤ = الزاد الذي ما يكفي اثنين واحد أحق فيه = من جرابك شيل وارقع من جرابي ما بتقشع (١٥ = لا بيسرح ولا

---

١) والمشهور بهذا المعنى لهجتنا قولهم: صاحب الحاجة أرعن لا يروم الّا قضاها. وبدّهُ اصلها بردّهِ اي بارادتهِ ونحوها

٢) سبق انّ الجلتبر عند العامة مقلوب الزنجبير بمعنى السلسلة واصلها فارسي

٣) وروايتهُ لهجتنا هكذا: اللي ما ينبع بيخلص . اي ان الذي لا يكون من نبع يفرغ. ويخلص عند العامة بمعنى يفرغ

٤) الهبيل في اللغة الفصحى الرجل الطويل. واما الهيل عند العامة فهي بمعنى الابله ولم تنطق بها العرب هكذا

٥) تقول العامّة اجرودي للاجرد الذي لا شعر في وجهه

٦) العامة تستعمل الكوسه ان كان خفيف شعر اللحية

٧) المطاول عند العامة بمعنى المستطيل

٨) الزلابية كلمة فارسيّة معناها رقاق من السمين تُتقلى بالزيت وقد تُعقد بالدبس

٩) الصوافي عند العامّة جمع صينية بمعنى الطبق. والحلواني صانع الحلوى وبائعها

١٠) تنا المعزى ونحوها اذا ناداها. والمعنى لو ان رعاية المعزى ونحوها بالصياح كانت النساء واعيات

١١) الظرف وعاء الحبر والزيت ونحوهما من جلد مدبوغ. وفي الامثال الفصحى: كل اناء بما فيه ينضح

١٢) والمعنى ان الوعاء الذي ينفخ لا يتفخ يكون مثقوباً. ويضربونهُ لمن عيل صبرهُ وضاق

١٣) الصفاوة بمعنى البقايا ونحوها

١٤) ويروى لهجتنا هكذا: زاد واحد يقري اثنين اي يطعمهما

١٥) اي خذ من مالك لقضاء حاجتك. واما من مالي فلا. وتقشع بمعنى ترى وتنظر عند العامة ويستعملونها بمعنى لا تحصل على

بيمير الجراب (١ = يسكر بابه وينادي: العيش يا جوعان = قال: يا مرا حوّشنا (٢ اجير بلا كري. قالت: وان كان بلا مونة يكون احسن = بدّه قط من خشب يصطاد ولا ياكل = هل يفضل عن القط جبن = زرّ القط بالسجق ونادى عليه صاحب الامانات (٣ = مثل الخروف لا بعض ولا بخرمش (٤ = الذي بليعب القط بيحتمل غراميشه = قال: ايش عايزك للمرّ. قال: الأمرّ منه = رضينا الهمّ والهمّ ما رضي بنا = صار لها رجّال قالت: اعور ما يريده = ان وجه الحريري وجه قرد والضرورة احوجتنا اليه (٥ = الجندي لمّا بيفلّس بيصير يفتّش على دفاتر بيّه العتاق (٦ = بدّه من الدواق سبع واق (٧ = اذا كان طبّاخك جميص يا طال ما تشبع مرق = ايش مـا طبخت الرعنا ياكل جوزها الاعمى (٨ = صار من يطبخ لك لماذا تحوّرق اصابعك (٩ = الذي بتحطّـه بالدست بيطلع بالمرغفة (١٠ = ما بيفرقع بالدست الّا ارشم العظام (١١ = قال: يا مرا اطبخي طيّب. قالت: يا رجّال كثّر الادام

جحى

كن بالأوّل يا جحى ولو كان في حلق اللحى (١٢ = لمّا طلع جحى للنخـلة اخذ

---

١) اي لا يذهب مع الماشية لرعايتها. ولا يطبخ الجراب لنضع فيه الزاد

٢) حوّش مندم بمعنى جمع

٣) السجق عند العامة خرقة لها ذوائب تدلّية

٤) وجذا المعنى لهجتنا: مثل عترة الفرعا. يضرب لمن كان عادتاً. وخرمش عند العامة بمعنى خمش وشابها في المثل التالي الترامش اي الشرامش بمعنى المخموش ونحوها ٥) الى ما كان عليه الحريري من قبح المنظر وجودة القريحة

٦) ويروى لهجتنا هكذا: افتقر الجندي واندق فتّش على دفاتر بيه العتاق. واندق بمعنى انضاق وبيه اي ابوه ٧) الدواق اي الذوق

٨) الرعنا مؤنث الارعن بمعنى الحمقاء ونحوها

٩) والمروي لهجتنا هكذا: اذا صار من يطبخ لك ليش بتحرق صابعك. وتحوّرق بمعنى تحرق

١٠) المرغفة مقلوب المفرقة للملعقة الكبيرة المعروفة

١١) والمروي لهجتنا هكذا: ما بيفرقع بالدست الّا كل عظمة. وربما قيل ما بيقرحط بمعنى بقرقع

١٢) والمروي لهجتنا هكذا: كن باول السوق يا جحى ولو بقطع اللحى

مداسه معه قالوا له : لماذا . قال : عسى يصير لي درب من هناك (١ = جحى صار يكذب حتى صار اذا صدق ما يصدّقوه (٢ = شال جحى العلكة من فمه حطها على راس الله فسألوه قال حتى يضلّ رزقي قدام عيني (٣ = جحى جابه وجحى أكلهُ = هل ان جحى اكبر من ابوهُ = جحى أحق بلحم ثورهُ = جحى ما فيه لحماته بيقتل مراته = جحى واهل بيته عرس = قالوا : راح جحى واسترحنا منه . قال : صبحك بالخير يا خالتي = قالوا لجحى : انا هو احسن اياملك . قال : لما كنت احمل التراب بذيلي = بتبشكير والا بترعى الجدا . قال : ما فيه كلام لبعد الغدا (٤ = قالوا لجحى : استرزق باب الله راح قعد على باب الفرن = قالوا لجحى : قل لابوك يشتري لك عرقية . قال : ضربه العمى انا هو شايفني (٥ = قالوا لجحى : ليش قبعك اعوج قال : من كلمة الحق = مثل جحى ما فيه الا لحاته = قالوا : لجحى صاير بحارتك شرّ . قال : عليّ بحالي = قالوا لجحى : متى تقوم القيامة . قال : يوم الذي بموت انا = قالوا : لجحى لماذا بتاخذ البيض خمسة وبتبيعه سبعة . قال : حتى يستوني تاجر = جحى اول ما صار شيخ باص اولاد حارته (٦ = كل من بهنه وجحى بيقتل امّه (٧ = مثل مكسب جحى بالبيضات (٨

الآباء والقتال والامانة والخيانة

الاباء ياكلون حصرم والابناء يضرسون = تقاتل البحر والريح طاحت على

---

١) المداس نوع من الحذاء لهُ عرونان ويكون غالباً من جلد احمر

٢) ضل عند العامة بدلة من طل يمشي استبرّ وهو كثير في كلامهم

٣) العلكة شي يتخذ من البحر ونحوه ويُوضع ولا يُبلع ويشتق منهُ فعل علّك وعالك وقد يقصد بها كثرة الكلام تشبيهاً بمن يمضغ العلك

٤) تشكر بالعامة وضع ملاءة طويلة على ركبتيه لئلا يصيب الدسم ثيابه . والملاءة تعرف بالبشكير . والجدا جمع جدي

٥) العرقية شبه طربوش يتخذ للراس من القماش الابيض المعروف بالقصور ونحوه وقد يتفننون بتطريزها وقد تُلبس تحت الطربوش لتقيه من العرق وكانت نسبت اليه في الاظهر وقيل انها منسوبة الى العراق

٦) باصه اخذ المال منهُ ظلماً وبمثلها صادره

٧) وروى ايضاً : كل من بهنه وجحى يقبر امّه

٨) ويقال « مثل تجارة جحى بالبيضات » . وقد مرّ قريباً اصل هذا المثل

المراكب (١ = تقاتلوا القيقان على كشك الجيران (٢ = تقاتلوا الزلاحف عفوا الضفادع = من قصدك وجب حقه عليك = أمين وخاين ما يكون = من آمنك لا تخونه ومن خانك لا تأمنه (٣

مصر

قالوا: في مصر يكبّروا اللقم. قال: على ما يفتّوا لك (٤ = قال: في مصر عيد. قال: ان فيه هريسة ما هو بعيد (٥ = قال: في مصر واحد بيتدّي. قال: ان كان بيقدّي (٦ = مصر ما هي بعيدة على من يزورها (٧ = يا داخل مصر مثلك الوف (٨ = قال: فشختي في مصر اربعين قدم. قال: عاديك ارض وهذه ارض (٩

الكذب

اذا اردت ان تكذب بعّد (١٠ شهودك = كن بعيد واكذب على ما تريد = حبل الكذب قصير = إلحق الكذّاب الى باب داره = الكذب ملح الرجال والعيب على الذي يصدّق = لسانك حصانك ان صنته صانك = لساني ما عدمتك كيف ما أردتُ درتك = الانسان بينربط من لسانه والثور من قرونه = اذا كان الكلام من فضّة السكوت من ذهب = لا تتكلم بامان فالحيط له آذان وان ما كان له آذان خلفه انسان = قال: الله يخيّب الذي يتكلّم في حق الناس. قال: بل الله يخيّب الذي

---

١) ويروى عندنا اليوم هكذا: تقاتل البحر والريح ردوا الصلحة عالمركب

٢) القيق والقمق عند العامة بمعنى الغراب. والكشك طعام يتّخذ من الطين والحنطة المطبوخة (البرغل) على طريقة معلومة ثم يُفتّ ويتّخذ للاكل

٣) ويروى هكذا ايضاً: من آمنك لا تخونه ولو كنت خوّان

٤) فتّ الخبز اي كسرهُ ليضمهُ في السوائل ونحوها

٥) الهريسة طعام تتخذه العامة اليوم من الحنطة واللحم وبعض قطع اللحم وهم يتفاخرون بها

٦) يقدّي او يقفّي عند العامة بمعنى يكفي

٧) ويروى هكذا: مصر ما هي بعيدة على اللي بيزورها. ويقال ايضاً بدل مصر: «مكّة»

٨) ويروى ايضاً: يا داخل مصر مثلك كثير

٩) الفشخة الخطوة. وعاديك البدل من قولهم: عاتيك

١٠) ويروى: بَيْعِد وهي بمعناها

يخلي (١ الناس تتكلم فيه = الذي ما بتأثر فيه الكلمة ما بتأثر فيه الضربة (٢ = الكلمة التي ما بتنفذ يا دلّ قاتلها = اقعد اعوج وتكلم مقوّم = مجنون يتكلم وعاقل يفهم = نصف الكلام ما له جواب = زينة الكلام اخذ وعطا = السكوت ردّ الجواب = من كثر كلامه قلّ احترامه = اقطع دقنه ولا تقطع كلامه = ان صحّ المام اخذنا الحيوان والّا فهو كلام في كلام

الشحاذة والفقر

القلّة بتورّث النقار (٣ = شحّاد ومشارط ما بيكون (٤ = الشحادة كيميا لكن الوقوف على الباب صعب (٥ = ما عمره شحّاد بيحبّ صاحب محلاية (٦ = الكسرة في يد الشحّاد عجيبة = الذي ما يحسب ما بيسلم = الحسنة ما بتكون بالدبوس (٧ = الذي ما بيحسب لبعيد بيقع قريب = حساب الذي حسباه وقمنا فيه = كل شي حسباه في الورق الّا الزلق = احسب الطلوع قبل النزول = احسب الخسارة قبل المكسب = حساب الحقلة ما بيقوم على حساب البيدر = حساب السوق ما بيجي على حساب الصندوق = لا تقول فول حتى تحط في المكيول (٨ = العشوة الطيبة بتطلع ريحتها من العصر (٩ = الفلّاح فلّاح ولو تعشى من العصر (١٠ = لا بدها تشتي زلابية بتغيّم بعجين = وجه الكريم له علامات = بشر القاتل بالقتل والزاني بالفقر (١١ (التتمّة لعدد آخر)

---

١) يخلي اي يترك

٢) ويروى هكذا: اللي ما بتقطع فيه الكلمة ما بتقطع فيه ضربة السيف

٣) النقار بمعنى الخصام والقتال

٤) اي ان الشحادة تكون على حسب ما يريد المعطي بلا شرط

٥) يقال الشحادة كيميا اي غنى وكأنهم يريدون بذلك الاكسير وهو تحويل المعادن الى ذهب

٦) اي ان صاحب الصناعة لا يحب حريفه اي مشاركه بمعرفته

٧) الدبوس عصا لها رأس مدملك كبير تتخذ للضرب. والمعنى ان الحسنة لا تكون بالضرب بل باللطف واللين

٨) المكيول عند العامة بمعنى المكيال

٩) العشوة اي العشاء

١٠) اي ان تغيير عادة الفلّاح لا تخرجهُ عن لقبه

١١) ويروى هكذا: بشّر القاتل بالقتل والزاني بالفقر ولو بعد حين

المختار في كشف الاسرار

نظر للاب انوبس شيخو اليسوعي (تابع لما سبق)

وللجوبري فصل آخر افردهُ لطائفة من المكّارين الخدّاعين الذين دعاهم « اصحاب الكاف » ويريد بهم اصحاب الكيميا (alchimistes) وليست تلك الكيميا العلم الجليل الذي شاع في ايامنا ولهُ اصول مقرّرة وقوانين ثابتة مبنيّة على الاختبارات وعلى تحليل العناصر المركّبة وتركيب الاجسام الطبيعيّة ومعرفة خواصها. وانّما كانت الكيميا في القرون الوسطى فنًّا كثر فيهِ التدليس فيزعم اصحابهُ انّهم يستطيعون ان يغيّروا خواص المعادن فيجعلوا النحاس فضةً والفضة ذهبًا وذلك بواسطة مزيج يدعونهُ الاكسير. وكان جلّة من علماء العرب كابن سينا والرازي والفارابي وابن جابر وغيرهم يسعون في تحقيق امنيتهم غاية جهدهم ويقصدون بذلك غاية علمية وقد ادّت بهم اختباراتهم الى وضع المبادئ الاولى لعلم الكيميا الحاليّ. الّا ان قومًا غيرهم اتخذوا هذا العلم للغش والمكر كما بيّن الجوبري في اوّل هذا الفصل وهو التاسع في بعض النسخ واما في نسختنا فهو الثامن والعشرون وقد قسمهُ الى تسعة ابواب (ص ١٣٨—١٥٤) قال:

اعلم انّ هذه الطائفة اعظم الطوائف تسلّطًا على اموال الناس وانهم في الحقيقة دكّاكون (اي نصّابون) ولو علم احد منهم شيئًا بين الاثنين ما أطلع عليهِ احدًا من العالم ولو كان لهُ حاجة الى الخلق اجمع لأنّ الذي يريدهُ من الناس قد حصل لهُ . . . وانّما هؤلاء الذين يتكلّمون في هذه الصناعة قوم يتحيّلون على الناس ويأكلون اموالهم بالباطل . . . واعلم يا اخي وفّقك الله تعالى اني كشفت لهم ثلثمائة طريقة في الدكّ لا يمكن شرحها خوف الاطالة بل نذكر منها البعض ليستدلّ بها العاقل على الكلّ . . .

ثم جعل الجوبري يعدّد بعض حيلهم فقال:

فمن ذلك انهم اذا ارادوا ان يدكّوا شيئًا يعتمدون على من يكون طالبًا لهذه الصناعة من المباشرة فيرغبون الوصول الى معرفتها ويتفقون عليهم بذلك فيقول احدهم للطالب: انا افرّجك. ثم يأخذ شيئًا من الذهب والفضّة ويدكّهُ عليهِ ويقول لهُ: انزل بهِ في السوق بيدك فيأخذ ذلك وينزل بهِ الى الصاغة ويبيعهُ بأوفى ثمن فيجيء الى الشيخ ويدفع لهُ الثمن فيقول: « والله ما يدخل

الى ملكي منه شيء فاني غير محتاج اليه . هذا يكون برسم نفقة الصانع » . ثم يلازمه ايامًا فيسأله شيئًا آخر فيسمه مرة ثانية وثالثة حتى يسيء عقله ويتمكن منه و يأخذ منه عوض الدراهم دنانير . واما كشف دكهم فان منهم من يجعل الدك في قعصمة ويترك ما فيها في البوتقة فاذا علم ذلك قوى النار فتحترق العقاقير التي وضعها في البوتقة وتبقى الدكة فيقليها فتترك السبيكة ذهبًا كانت او فضة على قدر ما يُدك له فيذهل العقول ويسلب الاموال . ثم يطالب منه شيئًا آخر فيدعي ان الاكسير الذي عنده قد فرغ وانه لا يمكنه عمل اكسير ثان في هذا الوقت فلا يزال يلح عليه حتى يذعن بالمال فيقول له : « هذا يطالب تبًا عظيمًا وخسارة الّا انه اذا انتهى صار لك منه مال جزيل لا يقع عليه قياس » فيطعمه فيه ويقيم عنده في أكل وشرب وكسوة ستة اشهر او سبعة اشهر وفي كل يوم يطلب منه خمسين او ستين درهمًا فيحصل من ذلك جملة ثم يدعي انه فسد . . . ومنهم من يجعل للبوتقة طبقتين فيكون الدك في الطبقة السفلى وتكون الطبقة العليا مثقوبة الاسفل مسدودة بشمع فاذا جعل الرصاص فيها وساف عليها حتى يحترق تذوب الدكة ويذوب الشمع فاذا قلب نزلت كلها من البوتقة وقد صارت رمادًا وتترك السبيكة اما ذهبًا واما فضة فيذهل العقول فافهمه

ثم أتبع الجوبري هذه التفاصيل باخبار بعض المخدوعين بكايد هؤلاء الحبثاء. نختار منها خبرين جريا في زمان المؤلف :

الدمشقي المغفَّل

(قال) ومن ذلك اني رأيت بمدينة دمشق رجلًا نصرانيًا يُعرف بابن ميسرة صائغًا فبينما هو يومًا في الدكان اذ أتى اليه رجل وناوله سبيكة فضة مقدارها ثلثمائة درهم وقال له : ادفع هذه السبيكة للدلالين ليبيعوها لي . فقال الصائغ : على الجمى تبيع ! قال : وعلى الرؤوس . فاعطاها لمنادٍ فباعها المائة بمئة وعشرة . هذا وقد اقعده الصائغ على الدكان الى جانبه . فلما قبض الثمن دفع للمنادي اجرة وافرة ثم رمى بخمسة دراهم وقال للصائغ : ارسل احد صبيانك ليشتري لنا شيئًا نتملح به . وحلف بالحرام انه لا بُدَّ ان يفعل ذلك . فارسل من اشترى واكلوا . ثم جلسا ساعة يتحدثان . ثم قام ونزل من الدكان وقد وضع تحت نطع الصائغ عشرة دراهم

ثم انه عاد بعد مدة وصعد فجلس على دكان الصائغ ففرح به وتحدثا ساعة ثم اطلع سبيكة اكبر من الاولى فدفعها للمنادي فجاءت المائة بمئة وخمسة عشر . فالتفت الى الصائغ وقال له : ان كان لك بها حاجة فخذها وزنًا بوزن . فاخذها ثم عمل

كالمرة الاولى فنعهُ عن ذلك وقال : يافلان ايش تخاف عليَّ . هذه المائة تقوم عليَّ بدرهم او درهم ونصف فما عسى ان يروح منها . فلما سمع الصانع عظم الشيخ في نفسه . ثمَّ انصرف وغاب أياماً ثم جاء . ولم يصحب معهُ سبيكة فسلم وصمد وجلسا يتحدثان وصار كلَّما مرَّ شيءٌ من الحلوى او من المآكل قال : حطّ زن . فيشتري ويأكل هو والصانع وكلّ من في الدكان والجيران واقام أياماً يتردَّد ولم يصحب معهُ شيئاً من السبائك . فسأله الصانع عن سبب تأخير السبائك . فقال : والله كنت قد عملت اكسيرًا ففرغ . فلمَّا سمع الصانع ارتبط ثم تحدَّث معهُ ساعة فقال لهُ الصانع : اشتهي ان تأكل معي في بيتي خبزًا وملحًا لتجبر قلبي . فقال : « انا ما اريد ان اكلّفك . فاقسم عليه فقال : ان كان لا بُدَّ منهُ فهذه عشرون درهماً اعمل لنا بها شيئاً نأكلهُ . والتزم بالحرام انهُ لا بُدَّ من ذلك . ثم تواعدا الى يوم معلوم

فلما كان ذلك اليوم جاء الرجل الى الدكان فوجد ابن الصانع ينتظرهُ فاخذهُ وتوجَّه به الى الدار . فلما استقرَّ بهما الجلوس قدَّم الصانع شيئاً فاكلاهُ ثمَّ احضر حلوى فتحلَّيا . ثم جلسا يتحدَّثان فقال الصانع : لِمَ لا تعمل الاكسير . فقال : يا ولدي انَّ عندي الساعة ما انفقهُ فلست انا محتاجاً الى عمله . ثم لم اجد في هذه البلدة مكاناً ولا صاحباً اركن اليه وانا وحدي لا اقدر ان ادبّر شيئاً . فقال لهُ الصانع : يا سيدي هذه القاعة ملكي وما لي فيها اهل وانما هي برسم صاحب او صديق فاخليها لك وانا اخدمك وابني يكون في الدكان وبما احتجت اليه انا أحضره لك . فقال : « أما الاكسير فما نصرف عليه اكثر من عشرة دراهم واذا صار الاكسير نعمل منهُ قناطير الَّا انهُ يريد تعباً كثيرًا وطول روح وانا اليوم ما لي همَّة للعمل وعندي ما انفقهُ عشرين سنة » وصار يمتنع وصاحب البيت يسألهُ ويتضرَّع اليه ويحلف عليه ان يبيت عنده تلك الليلة . ولم يزل ملحًا عليه حتى رضي وتقرَّر الحال معهُ ثم تحالفا على وفاء العهد وزاد الصانع انهُ يمتنع من الاكسير باليسير . فقال لهُ الشيخ : بل انما امتنع منهُ بمثقال وخذ انت الباقي . ففرح الصانع بكلامه وطمع ان يتعلَّم الاكسير . ثم تواعدا على يوم معلوم وتفرَّقا

ولمَّا كان اليوم الموعود اشترى الشيخ الحوانيج ولم يكلّف الصانع بشيء . فلما سحق من الحوانيج ما يمكن سحقهُ ونقع منها ما يُنتفع قال للصانع : أتريد ان تعمل اكسير ذهب او فضَّة . قال : من هذا شيئاً ومن هذا شيئاً . فقال : اقسم هذه الحوانيج نصفين ثم

هات ما امكنك من الفضّة والذهب حتى ننقعهما في الماء اسبوعاً ثم نسقي بها هذه الادوية. فاحضر لهُ الصانع ستّماية دينار ذهباً والف وخمسمائة درهم فضّة ووضع ذلك بين يديهِ. فصرَّ ذلك في صرتين ووضعهما في اناءين وسكب عليهما ماء. ثم اقاموا سبعة أيام يخدمون تلك الحوائج. ثم قال للنصراني: اطلع الى جبل المزّة اجمع لنا من الجصّ الذي يُعرف ببُزاق القمر مقدار رطل واحد فقام الصانع وتوجّه الى الجبل وعمد الرجل الى الصرّتين فاخذ ما كان فيهما ووضع في احداهما فلوساً ونحاساً وفي الاخرى رصاصاً. فلما جاء الصانع بالذي طلب منهُ قال لهُ: هذا يريد يتكلّس في اتون الزجاج ليلة كاملة ثم يُخدم نصفهُ بماء الذهب ونصفهُ بماء الفضّة. فاذا تكلّس اقسمهُ ثم اخدمهُ وخرج لصلاة الجمعة فاستقبل الدرب ولم يطلع لهُ خبر

فاقام الصانع ينتظرهُ مدّة ولم يفتح صرّة الذهب ولا الفضّة. فقال لهُ ابنهُ: لا يكون اخذ الذهب والفضّة وراح. فقال الصانع: ما اجهلك وحقّ المسيح انهُ يقدر ان يجمع خزائن اموال فكيف هو محتاج الى ذهبنا. فقال لهُ ابنهُ: كن عاقلاً وافتقد الذهب وخلّ عنك الطمع. فلم يفعل وقال: انت قصدك ان تفسد علينا الشغل. فعاودهُ ابنهُ في ذلك فلم يفعل فقام ابنهُ خفيةً وفتح صرّة الذهب فوجدها فلوساً وكذلك الفضة رصاصاً. فلطما الرؤوس حتى ذهبت منهما النفوس. فانظر الى هذا الدهاء والمكر

المجمي والملك العادل نور الدين

ومن اعظم ما وقفتُ عليهِ واظرف ما جرى للسلطان الملك العادل نور الدين بن زنكي رحمهُ الله وهو حديث يصلح ان يُكتب بماء الذهب وذلك ان بعض الاعاجم جاء الى دمشق فاخذ الف دينار مصريّة فبردها برادةً ناعمة ثم اخذ دقّ الفحم واضاف اليهِ عتاقير مجفّفة وطحن الجميع وعجنهُ بغراء السمك ثم جعلهُ بنادق وجفّفها تجفيفاً ناعماً. ثم لبس دلقاً وتزيّا بزي الفقراء وجعل تلك البنادق في مخلاةٍ ثم اتى الى بعض العطارين فقال لهُ: أتشتري مني هذا. فقال لهُ العطار: ولأيّ شيءٍ ينفع هذا. قال: ينفع من السموم القاتلة ويدخل بجميع الادوية التي تنفع للأخلاط ولهُ نفع عظيم غير هذا ولولا اني قد ادركني الحاج وما اقدر على حملهِ ما بعتهُ فانهُ يساوي الذهب وزناً بوزن عند من

يعرفهُ فقال العطار : وبكم هو . فقال : بعشرة دراهم . فاتفقا على خمسة دراهم فاخذ العجمي الدراهم وجعل العطار الطبرمك (١ الخراساني في علبة عتيقة . فانظر الى هذا الرجل ما اجسرهُ باع الف دينار بخمسة دراهم لقد قالوا في المثل : من خاطر بنفيس ظفر بنفيس

فلما انفصل من عند العطار جاء الى منزلهِ ولبس احسن ما يكون من ملابس الوزراء والملوك وجعل خلفهُ مملوكاً واكترى داراً حسنة تصلح للوزراء وصار يخرج الى الجامع ويتعرَّف بالاكابر من اهل البلد ويعمل السماعات ويصرف جملةً في كل ليلة ويدَّعي الوصول في علم الصناعة (اي الكيميا) وانهُ يقدر يعمل في يوم واحد جملةً من المال

وشاع ذلك عنهُ في دمشق . فسألهُ الكبراء ان يعمل عندهم فامتنع وقال : « ما انا محتاج الى احد فاني في يوم واحد اعمل بمقدار نعمة من يريد ان اعمل عندهُ . فان كان لاجل ملك او بستان فانا اقدر اشتري عشرة بساتين ومثلها دور . وان كان لاجل جاه فانا ما اعمل شيئاً عليَّ دركهُ فانَّ الذي اعملهُ ما فيهِ غشٌ ولا زغل حتى اطلب فيهِ جاه احد . هذه صنعة الهيَّة وقد آليت على نفسي ان لا اعمل بها الَّا للملك بعد ان يعاهدني انهُ لا ينفق منهُ شيئاً الَّا في سبيل الله فان حصل هذا الشرط عملتُ والَّا فلا سبيل لعمل شيء على غير هذا الوجه »

فلما سمع الوزير ذلك قال : والله هذه سعادةٌ للمسلمين والسلطان والآن هذه البلاد كلها للفرنج الى باناس وكل يوم تصل الغارات الى ديارنا (ويروى : الى داريَّا) فاذا عمل شيئاً تفتح بهِ البلاد فهذه نعمة عظيمة . ثم قال الرجل : أعرَّف السلطان بالامر ؟ قال : نعم اكني اريد ان لا تجمع بيني وبينهُ الَّا بعد ان تستوثق منهُ باليمين . فقال : نعم

ثم ركب الوزير من الغد الى الخدمة فخلا بالسلطان وعرَّفهُ بامر العجمي . فقال : والله انَّ لي أياماً افكر في شيء يكون فيهِ قلع هؤلاء اللاعين من هذه البلاد . ثم رسم للوزير باحضارهِ في غاية الكرامة فاحضر لهُ بغلة خاصَّة . ثم دخل على السلطان وقبَّل الارض لدى الحضرة الشريفة . فاجلسهُ السلطان واكرمهُ وحادثهُ ثم قال لهُ : أصحيح ما

---

١) الطبرمك ويقال الطرمك لفظة فارسية لبات وقيل لمدن وهي كان يزعم اصحاب الكيميا القديمة انهُ يدخل في استحضار الاكسير

قال الوزير عنك. فقال : نعم يا مولانا السلطان لكن على الشرط الذي تقرّر مع الوزير. فقال السلطان: قبلنا بالشرط. ثم قال العجمي: يا مولانا ان جميع من يدّعون الصناعة كذّابون دكّاكون وانا شرطي معكم اني لا امسّ شيئاً بيدي بل اكون بعيدًا واقول: افعلوا كذا وكذا ومولانا السلطان يفعل بيده او يأمر من يفعل بحضوره. فقال السلطان : رضينا ايضاً بهذا الشرط

فاخذ العجمي ورقة وكتب فيها اسماء الحوانج وذكر اجزاء من عقاقير شتّى ثم قال: ومن الطبرمك الخراساني مئة مثقال. ثم دفع الورقة الى استدار السلطان. فقال السلطان للوزير: أحضر هذه الحوانج. فاحضر الوزير جميع الحوانج وعجز عن الطبرمك الخراساني فلم يجده فقال: انهُ ما يوجد الّا في البيمارستان. فقال السلطان: اطلبوه من البيمارستان والحكماء. فطلبوهُ فلم يجدوهُ. فقال السلطان للعجمي: أليس شيءٌ يغني عن الطبرمك. قال: لا ولكن ما اظن انّ دمشق تخلو من هذا العقّار. والذي اراه ان مولانا يرسم للمحتسب ان يركب في الغد والمملوك في خدمته ومعنا شاهدان من العدول وندور على دكاكين العطارين الذين بالمدينة فنفتشها دكانًا دكانًا فلعلّنا نجد عند احد شيئاً منهُ. فقال الوزير : رأي مليح حسن. وكان المحتسب يقال لهُ القائد. فارسارا الى القائد ان يفعل ذلك

فلما كان الغد ركب الوزير والعجمي والقائد والعدول وسيروا الدكاكين دكانًا دكانًا حتى انتهوا الى دكان العطّار الذي باعهُ العجمي الطبرمك فجعل صاحب الدكان يقدّم لهم برنيّة بعد برنيّة حتى اتاهم بالبرنيّة التي فيها الدكّة التي باعها من العجمي وسمّاهُ بالطبرمك الخراساني. فلما رآها العجمي تهلّل وجهه بالفرح واشتراها منهُ بشيءٍ يسير. ثم قال العجمي : اختموا على هذه البرنية بختمكم وابعثوا بها الى السلطان. ثم جاؤوا الى السلطان فقال العجمي: اريد من الآلات كذا وكذا. فاحضر لهُ جميع ما اراد من الآلات. ثم جلس السلطان وحدهُ في صفّة وجلس العجمي ناحية ثم قال: يا مولانا السلطان زنّ من العقار الفلاني كذا وكذا ومن الشيء الفلاني كذا. ثم قال : ومن الطبرمك مائة مثقال ولا زال يقول: افعلوا كذا واصنعوا كذا مدّة ايّام الى ان قال للسلطان: ان الاكسير قد انتهى شغلهُ فاحضروا لنا بودقة وخمّاً ومنفاخاً. فاحضروا لهُ ذلك ثم قال للسلطان: خط بيدك هذه الحوانج فاخذ السلطان يعي في البودقة من ذلك الدواء

وصار العجمي ينفخ النار الى ان دار الذهب فقال للسلطان: اقلب على بركة الله تعالى. فقلب. فنزلت سبيكة ذهب مصري لا يكون احسن منها شيء. ولا زال يقلب سبيكة بعد سبيكة حتى فرغ الدواء. ثم اعتبروا ذلك فوجدوهُ الف دينار. ففرح السلطان بذلك فرحاً شديداً واكرم العجمي اكراماً زائداً

ثم قال السلطان: أما تعمل لنا من هذا شيئاً آخر. فقال: السمع والطاعة أحضر لي من هذه العقاقير وانا اعمل ما اراد. ولما السلطان. فطلبوا الطبرمك فلم يجدوهُ فسأل السلطان عنهُ العجمي فقال: « انهُ نبات ينبت باراضي خراسان (ويروى انهُ معدن في الجبل في مغارة) وهو رخيص الثمن جداً فاذا رسم مولانا السلطان ان يُحمل اليهُ الف حمل وُجد ذلك وانا دخلت اليها وحملتُ من ذلك شيئاً كثيراً وعندي في داري نحو قنطار». فلما سمع السلطان قال: والله ما نجد من يروح يحضر لنا من هذا العقار اخبر منك وان تعذَّر تحصيل ذلك من منابتهِ ومظانهِ احضرت لنا الذي عندك وانا اكتب معك الى سلطان خراسان بمساعدتك ومنع من يتعرَّض اليك. فتشفَّع العجمي وقال: ان رأى مولانا السلطان ان يبعث غيري فليفعل فانَّ نفسي قد طابت في دمشق وفي خدمة الحضرة الشريفة. فقال: لا بُدَّ من رواحك فانَّ لك في ذلك اجراً عظيماً. ولم يسألهُ حتى انعم بالسفر. فجهَّزهُ بستين حمل قماش منها شرب (اي كتَّان) عمل تنيس ودمياط ومنها عمل الاسكندرية وغير ذلك واعطاهُ خيماً ومطبخاً وفراشين ونفقة الى بغداد واوصاهُ اذا وصل اليها ان يبيع ما معهُ ويتسفَّر الى العجم وكتب معهُ كتباً الى سائر البلاد بالكرامة والخدمة. وراح في نهاية ما يكون من التعظيم وخرج معهُ السلطان وجميع ارباب الدولة فودَّعوهُ وسافر وقد ظفر بالاكسير الاعظم. ولم يطلع لهُ من بعدها خبر. فانظر الى مكر هؤلاء القوم وكيف يتوصلون الى اخذ اموال الناس بالحيل ابعدنا الله واياكم عنهم وعن هذه الافعال واجارنا الله واياكم من الفتن والاحوال

ومن اظرف ما في هذه القصَّة انهُ كان بمدينة دمشق رجل يكتب اسماء المغفَّلين والحارقين فسمع بهذه القضيَّة وعلم باطنها فلما تحقَّقها كتب على راس جريدتهِ: «نور الدين محمود ابن زنكي رأس الحارقين». فشاع ذلك في دمشق ولم يعلم احد باطن الامر الَّا انهم يقولون انَّ فلاناً كتب عن السلطان كيت وكيت. فاتصل خبرهُ بالسلطان فقال: وما حملهُ على ان يكتب اسمي مع المغفَّلين. هاتوهُ. فنزلت الجنادرة وقالوا لهُ: كلَّم مولانا

السلطان: فاخذ الجريدة في كمّه ومشى معهم. فلما وقف قدّام السلطان قال لهُ: انت فلان. قال: نعم. قال: وانت تكتب اسماء الحارَفين. قال: نعم. قال: وكتبتني في جريدتك. قال: نعم وهذا اسمك. ثم اخرج الجريدة فاراهُ اسمهُ فيها. فقال السلطان: وما الذي رأيت من جراني حتى كتبتني. فقال: كيف لا اكتبك وقد جاء رجلٌ نصّاب غشّك ودكّ عليك الف دينار اخذ بها اموال المسلمين وراح ليجيء لك بالطبرمك فهل يكون جراف ابلغ من ذلك. فلما سمع السلطان كلامهُ قال لهُ: كانّا بهِ وقد جاء ومعهُ الطبرمك فيعمل منهُ اموالًا لا تحصى. فقال: يا مولانا السلطان ان جاء محوتُ اسمك وكتبت اسمهُ. فضحك السلطان ورسم لهُ بنفقة وراح. فكان كلّما افلس اخذ الجريدة ووقف على باب القامة فاذا ركب السلطان فتح الجريدة فيقول: ما جاء العجمي وهذا اسم مولانا السلطان. فيضحك السلطان ويرسم لهُ بشي فياخذه ويروح واقام على ذلك مدّة حياة السلطان وما جاء الطبرمك

وقد الحق الجويري هذه القصّة بخبر مغربي يدعى عبد الله المغاوري (ويروى الغموري) وقف على حيلهِ احد موالي الامير عزّ الدين ايبك المعظّمي المتوفى سنة ٦٥٥ (١٢٥٧) (الستّة اعداد آخر)

سياحة في سويسرة

لشاب الاديب جرجي بن يوسف اليان مركبس احد طلبة المدرسة في كلّية لوزان (تتمّة)

بعد ان زرنا مدينة لوسرن ومتّعنا الابصار بما فيها من الآثار والمشاهد البديعة غادرناها سائرين الى زوريخ. وكان سفرنا في ظهيرة الاربعاء ١٩ آب على ظهر باخرة قطعت البحيرة على طولها (وهو يبلغ ٣٢ كيلومترًا) في مدّة ساعتين ونصف. وكان هذا من ابهج واشوق الاسفار لما كنّا نعاينهُ في طريقنا من المناظر الفتّانة على ضفّتي البحيرة فكنّا نوجه الابصار الى الآكام والرُّبى المحدقة بها وكلّها مكسوّة بالعشب الاخضر تزينها الغياض وتجلّلها ضروب الاشجار. ووراء هذه التلال تشرف جبال شاهقة اعظمها جبل ريجي (Rigi) الذي موقعهُ في مركز بلاد سويسرة يبلغ علوّهُ ١٨٠٠ متر ومن

مدينة ماردين (عن صورة شمسية ، من رسم حسن الباشا الخراط)

فتئذ ينظر الناظر ما يأخذ بمجامع الفؤاد ويسبي حشاشة الاكباد واكثر الزوّار يقصدون هذا الجبل رغبةً في محاسنهِ ومعاطفهُ اشبه بجنّة غنّاء تشتمل على اجناس النبات وصنوف الاشجار

وبعد برهةٍ من الزمـان رأينا ضفّتي البحيرة قد تقاربتا حتى كادتا تتماسّان فجرينا في هذا المضيق نميل تارةً الى اليمين واخرى الى اليسار ولاحت لنا على شاطئ البحيرة طريق غريبة للعجلات فتحهـا السويسريّون في قلب الصخور التي تنتصب في جانبي البحيرة فالطريق منقورة في الصخر الاصمّ تُرى حيناً مكشوفة وحيناً نافذة في الأنفاق ذات كوًى منيرة . والسابلة يجرون فيها لبهجة مناظرها . وكثير من هذه الانفاق قد نُقر في الجبل على هيئات بديعة كالاروقة والمعاهد والقاعات تسند سقوفها الاعمدة والسواري

وألقت الباخرة مرساها عند محطّة اسمها تلسنبلات يشرف عليها جبل يبلغ ١٧٠٠ متر فوق سطح البحيرة وهناك ينزل السيّاح ليزوروا مشهـدًا اقامهُ السويسريّون كأثر وطني ذكرًا لحرّ بلادهم من جور الظالمين في اواسط القرن الرابع عشر ألا وهو غليوم تل البطل الصنديد . والمشهد المذكور شهير في كل هذه الجهات في وسطهِ تمثال عجيب يُعدّ من طُرف الصناعة

ثمّ جرت بنا السفينة ونحن لا نزال نتنقّل من منظر الى آخر وكنّا نرى جبـال ايالة شويتز (Schwytz) السامقة بعلوّها ونحن نودّ لو يسمح لنا الوقت بالتجوّل في نواحيها ونرقى الى معبد هناك قديم العهد ذائع الشهرة يحجّ اليهِ كل سنة نيّف ومائة الف من الزوّار اعني مزار السيّدة البتول في أينسيدلن (Einsiedeln) وهنـاك دير للبندكتيين بُني في القرن العاشر . أمّا كنيسة العذراء فمن بدائع الهندسة فيها عدد لا يُحصى من الآنية الثمينة والتماثيل البديعـة والنقوش الصناعيّة والتصاوير التي تُنسب لمشاهير الصنّاع من جملتها صورة السيّدة العجائبيّة يعرضونها في بعض الاعياد بأبهـة عظيمة وعيدها الكبير في ١٤ ايلول يتقاطر اليها الناس من سائر جهات سويسرة بل من جهات اوربّة البعيدة . وفي الدير متاحف غنيّة بضامينها منها للمعادن ومنها للنبات ومنها للآثار القديمة . والرهبان مشهورون بفضلهم لهم مطبعة كبيرة مجهّزة بكل الادوات الطبيعيّة من الطرز الجديد . وعندهم مكتبة غنيّة بمخطوطاتها الثمينة اللاتينيّة واليونانيّة والالمانية يقصدها العلماء لذلك

ثم انتهينا بعد ساعة الى قرية فلون وهي اقصى محطة السفينة في تلك البحيرة التي يبلغ طولها ٣٢ كيلومترًا قطعناها بساعتين ونصف . نزلنا هناك وانتظرنا القطار ان يسير بنا الى مدينة زوريخ فما لبث ان جاء يهدر بعجيجه ويملأ الفضاء بصفيره فركبناه . فسار يطوي بنا السهول وكانت البحيرات تبدو لنا من اليمين تارةً ومن الشمال اخرى وتناوحنا على الجانبين الروج والآكام الخضراء والبيوت البيضاء المكنونة بين الادغال حتى وصلنا الى محطة أرث گولداو (Arth-Goldau) باسم قريتين هناك موقعهما في سفح جبل ريجي المذكور الذي ترى هامتهُ المعممة بالثلج على علو ٤٥٠٠ قدم وقد اصطنع السويسريُّون اربع او خمس مسكك حديديَّة ذات سلاسل للصعود الى مشارفه والتمتع بمشاهده الساحرة . وعند قريتَي أرث وگولداو حدث سنة ١٨٠٦ انخساف جبل روسبرغ فسُمع لهبوطهِ دويّ على مسافة بعيدة وتحدَّرت الى قعر الوادي صخور الجبل واشجاره وكل مبانيهِ زاحفةً بما وجدت في طريقها من المواشي والاهلين حتى خيّل للسكان انَّ الساعة قد قامت . وقد مات بذلك الحادث مئون من البشر وبادت قريتا أرث وگولداو

ثم أبدلنا قطارنا بقطار آخر جعل يذهب بنا الارض الى زوريخ . وكان مرورنا على بُحيرة تسوغ (Zug) الرائعة النظر التي تركو على اطرافها التلّات وتسوّر الاشجار المثمرة والكروم . وبها دُعيت إيالة تسوغ احدى ايالات سويسرة الشهيرة بجمالها ووفرة محاسنها ولها حاضرة باسمها على ضفَّة البحيرة

وقد فاتني ان اذكر أنَّنا منذ دخلنا فريبورغ اصبحنا في المقاطعات التي لا يتكلم اهلها غير الالمانيَّة فكنَّا نحتاج الى ترجمان يقضي لنا حاجاتنا

احتللنا زوريخ اصيل النهار يوم الاربعاء ١٩ وهي حاضرة احدى الايالات السويسريَّة المتَّحدة كما انها تحسب كعاصمة سويسرة الكبرى يبلغ عدد سكَّانها مع ضواحيها نحو ١٧٠,٠٠٠ نسمة موقعها في بطحاء واسعة معتدلة الهواء عند طرف بحيرة تُعرف بها حيث يخرج نهر ليمات (Limmat) فيشقّ المدينة ويمدّها بمياههِ الطيّبة . وايالة زوريخ كثيرة الجبال دافئة الانهار على تخومها يجري نهر الرين الزاخر ويتحدَّر بجنادل كجنادل مصر

وزوريخ احدى مُدن الدولة الاوليَّة تعقد فيها الحكومة جلساتها وتقضي بالامور العموميَّة الشاملة لصوالح البلاد . ولزوريخ شهرة واسعة بكثرة معاملها ولاسيما المعامل

الحريرية التي كادت تجاري بحسن منسوجاتها اجود منسوجات غيرها . وفي هذه المدينة كلية يزدحم الشبان في مكاتبها العلمية وهي المدرسة الجامعة التي لا يقلّ معلّموها عن ١٣٠ استاذًا وتلامذتها عن ٣٠٠٠ ولها قسم آخر هندسي طلبتهُ زهاء الف طالب ومعلّموهُ نيف ومئة . وفي هذه المدارس تخرّج رجالٌ من نخبة العلماء كالمؤرخين والشعراء والكتبة والاثريين والفقهاء . ومن جملة ما تحويه معاهد تلك الجامعة متحف آثار البشر الاوّلين الذين عاشوا قبل الطوفان او قبل التاريخ المعروف اي طور الظرّان . وهناك كذلك متحفٌ صناعي جامع لادوات الفنون الصناعيّة منذ القرون الوسطى الى عهدنا يُوقف الناظر لآثره على تقدّم الصناعة في القرون الاخيرة في انحاء اوربّة . وخلاصة القول انّ زوريخ استحقّت بهمّة اهلها أن تُدعى باثينا سويسرة وبحيرة زوريخ من ابدع بحيرة يُحدق بها ثماني عشرة قرية وعدّة دساكر وعليها تنقل السفن واردات ايطالية الى سويسرة وصادرات سويسرة الى ايطالية

وفي ظهيرة يوم الغد طارت بنا اجنحة القطار الى مدينة وِنتِرتور (Winterthur) وبُعدها عن زوريخ اقل من ساعة وهي في موقع مدينة قديمة كان يدعوها الرومان باسم ڤيتودورُم والبلدة الحاليّة كثيرة البهجة شهيرة الاعمال الصناعيّة تباري بها زوريخ وفيها المامل القطنيّة ومعامل ورق الكتابة بكل اجناسهِ . ذلك فضلًا عن حدائقها وغياضها

وكان موعدنا في مساء ذلك النهار بلدة صغيرة اسمها فَرَرْنفلد لا يزيد سكّانها عن ٧٠٠٠ نفس . وهي وطن المسيو بوْير الذي كان رافق الشقيق من تونس وسبقنا الى مسقط رأسه . فاضافنا في منزلهِ وبالغ في اكرامنا حتى كدنا نحسب نفوسنا بين الاهل والاحباب في بلادنا الشرقيّة . والحق يقال انّ اهل سويسرة يحسنون وفادة الضيوف ولا يألون جهدهم في اكرامهم حتى انّ لطفهم يزيد رغبة الوفود في زيارة بلادهم العجيبة

وبعد ان تناولنا طعام المساء خرجنا للنزهة في البلدة فدخلنا ناديًا كانت فيهِ جوقة من العسكر يعزفون بالآلات ويحيط بهم عدد لا يُحصى من اهل المدينة . ومما سرّنا مشاهدتهُ تمارين حربيّة كان يتولاها الجند في غابة قريبة من البلدة . وكانوا يطلقون المدافع على اهداف مرتفعة او حجارة منصوبة . وقد شاهدنا بين تلك المدافع مدفعًا لم يُر دخان

طلقته لكنّنا سمعنا لهُ دويًّا ارتجّت الارض بسببهِ فلمّا اصاب الغرض تصاعد دخانهُ وانتشر الغبار في الجوّ

ودخلنا هناك بستانًا وجدنا فيهِ ضروب الاثمار تنوء تحت عبئها الاغصان لكثرتها. وقد نالوا ذلك بحسن قيامتهم بفلاحة الارض وتوزيع المياه وتقليم الشجر يجرون في كل ذلك على قوانين علميَّة تضاعف جنى الاثمار فتزيد محصولاتها كثيرًا على بساتيننا الشرقيَّة وكذلك ادخلنا صديقنا الى معمل دفاتر ابتناءُ هناك اخوهُ يشتغل فيهِ عددٌ من الصنعة واكثرهم من البنات والفتيات بكل نظام وحسن تدبير . ومعظم الشغل دائر على أدوات جديدة تقرّ العمل وتوفر عدد المصطنعات

وكان في البلدة سيّدة سكنت مصر عدّة سنين فلمّا علمت بقدومنا ارسلت فدعتنا الى بيتها لنشرب عندها القهوة. فاستقبلنا عند ما دخلنا البيت ابنها الصغير وسلّم علينا بالعربيَّة بهذه الالفاظ: « ليلة سعيدة ايها الاحباب ». فقضينا هناك ساعة نذكر الاوطان وعادات الشرق ثم وشربنا القهوة العربيَّة كما يعدّها اهل بلادنا. وكان طعامنا في ذلك المساء لبنًا دسمًا غاية في اللذة تناولناهُ في جنينة عمويَّة لم ينقصنا شيءٌ فيها من اسباب المسرّات

وفي صباح يوم السبت ٢٢ آب ودّعنا صديقنا السويسري شاكرين لطفهُ وروادهُ فركبنا قطارًا صغيرًا بطيء السير أقلّنا بعد ساعة الى مدينة سان غال (Saint-Gall) حاضرة ايالة سويسريَّة تُعرف باسمها وتُعدّ من اخصب ايالات القطر السويسري لكثرة مراعيها واحراجها ووفرة مواشيها والبانها وفيها معامل للجبن السويسري المشهور. ولها ايضًا مصانع كثيرة للجوخ والجارد والمنسوجات والتطريز . والتجارة في انحائها قائمة على ساق وقدم لاسيما في حاضرتها. وهي مدينة من احفل بلاد سويسرة بالسكّان الذين يبلغ عددهم خمسين الفًا وموقعها على نهر جارٍ اسمهُ شتّيناخ يصبُّ في بحيرة كنستنزة وضواحيها تمتدُّ على ضفّتيهِ على مسافة ساعة بين الخضرة والبساتين. واصل هذه المدينة دير بُني للرهبان فعُرف باسم بانيهِ القديس غال في القرن السابع ولم يزل ينمو ويتّسع حتى استفاضت سمعتهُ واحتفل من حولهِ السكان وشُيّدت بقربهِ المباني. وكان رهبان الدير يُعنَون بالعلوم فيقصدهم الطلبة ويأخذون عنهم حتى انّهم قبل مئة سنة وخُصَّ ديرهم بالمتاحف الوطنيَّة منها مجاميع من المواليد الطبيعيَّة والمصنوعات

اليدوية. ومكتبة هذا الدير من اغنى الخزائن الكتبية بنفيس المخطوطات البديعة النقش العزيز الوجود. ومدينة سان غال تسبق سواها من المدن باقمشتها التي تنقل الى اطراف المعمور وهي شهيرة ايضاً بشرائطها المخرّمة والمزركشة ولها معامل متقنة لدباغة الجلود. وقد زرنا كنيستها الكاتدرائية فدهشنا مما رأينا فيها الاعمال الهندسية والنقوش العجيبة في جميع اطرافها ويزين جدرانها عدد لا يحصى من التماثيل والرسوم والصور اشتغل بها مدة اجيال متوالية كبار المهندسين وجلّة المصورين . وترى بين صحن الكنيسة والهيكل الكبير حاجزاً من الحديد المنقوش المفرغ يمثل اشكالاً هندسية وضروب التصاوير. وفيها ايضاً ارغن كبير كارغن فريبورغ لكننا لم نسمع نغماته. وكنا قصدنا التجوّل في البلدة لولا ما جادنا به السماء من المطر المدرار فبرحنا المدينة بعد ساعتين متوجهين الى بحيرة كونستنزة والسفر بين سان غال وتلك البحيرة نزهة تروق العين وتشرح الصدر فتمرّ بين المروج والرياض النضرة . وكانت البحيرة تلوح لنا من وقت الى آخر فتبدي محاسنها فقربنا حتى اقتربنا منها وجرينا بقربها لكنّ الامطار كانت تتهطّل علينا فتحرمنا التمتّع بها

ومعلوم انّ بحيرة كنستنزة واقعة بين سويسرة والمانيا فليس لسويسرة منها الّا طرفها. وباقي المياه لمملكة المانية. فلما وصلنا الى حدود البلادين مررنا بجمرك الالمان حيث أُجري التفتيش المعتاد على المواد الممنوع تهريبها ثم دخلنا مدينة كنستنزة التي تخصّ المانية وهي واقعة في دوقيّة باد فسمعنا هناك لاول مرّة اللغة الالمانية الصرفة التي تحلو على الاطفال الالمان وتطرب الاذن بلينها دون السويسريين المعروفين بلهجتهم الخشنة. وكونستنزة هذه ليست مدينةً كبيرة فانّ سكانها لا يربون على ٢١,٠٠٠ . وهي تمتاز بتوسطها التي تقصدها السفن المتعدّدة ومن حركة مراكبها يُستدلّ على خطر تجارتها. وليس في المدينة ما يستحقّ الذكر الا انّها حسنة البناء تزينها الشوارع الرحبة المظلّلة باشجار الحور. وكنيستها الكاتدرائيّة قديمة يُوشر في بنائها في القرن الحادي عشر وفيها عُقد مجمع كنسي من السنة ١٤١٤ الى ١٤١٨ به تمّ الشقاق الغربي المشؤوم. وللكنيسة برج مرتفع يبلغ علوه ٧٦ متراً ترى العين من اعلاه البحيرة مع كل نواحيها وفي هذه المدينة شربنا لاوّل مرّة الجعة (البيرة) الالمانيّة التي يُضرب المثل في لذّتها

ومن بحيرة كنستنزة هذه يخرج سيّد الانهار الالمانيّة اي نهر الرين وعلى مسافة ثلاث ساعات من منبعه جنادله التي يتوارد الزوّار الى معاينتها من كل صقع وناد .

فقصدنا نحن ايضاً ان نسير اليها لنسرّح الابصار في مياهها فركبنا سفينة من السفن العديدة التي تنقل الركاب الى المدن الواقعة على سير المياه. وكان مجراها اولاً على نهر الرين نفسه ثم دخلت بحيرة أخرى ثم عادت الى النهر. وقضينا كذلك ثلاث ساعات بسرور لا يوصف لان المناظر التي تجتذب ابصارنا كانت نهاية في الحسن فضفّتا النهر واطراف البحيرات كأنها مفروشة بالنبات تظلّلها الاشجار والحدائق. ويزيد على هذه المشاهد بهجة رونق البلاد والقرى التي بُنيت في تلك الجهات. وربما كان يضيق بنا المسلك بين الضفّتين او ينفرج على اختلاف سعة الوادي. وقد نصبت جسور عديدة فوق النهر فتمرّ السفن تحتها بعد ان تحني مدخنها للمرور. وبعض هذه الجسور تجري فوقها السكك الحديدية ومنها جسر بني فوقه منازل وتنفذ فيه النوافذ يميناً وشمالاً. اما عمق المياه فيختلف وللربان علامات مركوزة في النهر او عائمة على البحيرات او مناور يستدلّ بها على قعر المياه فيحيد عن الصخور لئلا ترتطم بها سفينته

وكان نزولنا في بلد شفهوز (Schaffhouse) في مساء النهار اذ كانت الشمس في أفق السماء ترسل أشعتها الاخيرة الارجوانية على تلك الضواحي فتكسوها حللاً بهية ذات ألوان زاهية. فنزلنا في احد فنادق البلدة لنبيت فيها ليلنا. وكان سبقنا اليه احدى شركات الجناز فزيّنت بعض حجره بالالوية والرايات لفوزها بما نالته من الفوز في سباق جرى في المدينة. فأُعدت لهم وليمة فاخرة وشربوا نخب اصحابهم وغنّوا الاغاني الوطنية المألوفة عندهم. ومدينة شفهوز هذه عدد اهلها ١٨٠٠٠ يقصدها السيّاح لقربها من شلالات الرين

*

قمنا في غلس النهار التالي وبعد تناول الطعام اسرعنا الى محطّة الترامواي الكهربائي فركبنا قطاره الذي اقلّنا مع جملة الزوّار الى قرية تبعد ربع الساعة. فكنّا نسمع عن بعد صوت المياه المنحدرة يزيد عجيجها كلّما نتقدّم الى الامام. ولما انتهينا الى القرية تبعنا القوم المتسارعين الى جهة النهر. فبعد قليل تراءى لنا منظر عجيب كاد يفتن حواسّنا فرأينا مياه النهر منحدرة من اعالي الصخور وهي تتناثر كالغبار الابيض او كقطع اللجين وكانت الشمس الطالعة تضرب اشعّتها في تلك الدقائق المنتثرة فتلوّنها بكل الوان قوس قزح فتارح لك بين صفراء وحمراء وخضراء وزرقاء. فكانها انوار ساطعة تبهر

الابصار باشكالها والمياه تتناثر يمينًا وشمالا على بُعد عظيم ومنها ما يزيد ويفور ومنها ما يتصادم على الصخور فيتكسَّر قصَدًا ويتطاير شُعاعًا حتى يسيل برغوة وافرة الى النهر فينضمّ الى باقي المياه ويجري بهدو وجلال. وهناك قصر يُدعى قصر لوفان يكشف على الشلّالة فيراها الناظر بكل روعتها المهيب ومشهدها البديع وذلك باجرة رسميَّة تساوي فرنكًا واحدًا فدفعناه بطيب الخاطر لنتمتّع العيون بهذا المرأى الفريد الذي تقصر الاقلام عن استيفاء وصفهِ. ومما يزيد هذا المنظر جمالًا صخرة عظيمة تقسم جري المياه الى قسمين وعليها تتدفَّق المياه الزاخرة بهيئات تختلف اشكالها ومحاسنها. وهو منظر شائق لا انساه طول عمري

ولهذا القصر مزيَّة خصوصيَّة قصدها بُناتهُ فانهم جهَّزوا اطرافهُ بادوات مختلفة نظموا دوزانها مع اصوات المياه في عجيجها فاذا قرَّبها الانسان من آذانهِ سمع نغمات موسيقيَّة منها رخيمة لطيفة ومنها ضخمة غليظة. وكذلك اذا جلست هناك على اسكمنة او كرسيّ شنَّف مسامعك صوت من الاصوات الشجيَّة

وبعد هذا نزلنا الى الجنينة حيث أُقيمت نوافذ بزجاجات ملوَّنة فينظر فيها الناظر مياه الشلالات فتروعهُ الوانها وتاخذ بابصاره محاسنها

ثم ألبسنا اصحاب القصر مشمَّعات وقرَّبونا من الشلّالات فكانت مياهها تتناثر علينا ونحن نشخص الى المياه في اصطدامها وفورانها وتحامُل بعض اقسامها على البعض وهي تهدر وتزمجر فترنُّ بها الآذان ويدوي بها صماخ السامع. وكان هناك قوارب يركبها الزوار فنزلنا فيها لنقطع عليها النهر ونرى الشلّالات طولًا وعرضًا فتجوَّلنا في وسطهِ واطرافهِ ولم ندع شيئًا يفوتنا من محاسن الطبيعة المتجمعة في ذلك المكان. وكان لتجوّلنا فائدة أخرى ان نشاهد المعامل التي شيَّدها ارباب الصناعة على جانبي الشلالات ليستخدموا قوَّة المياه بدلًا من البخار اقتصادًا. وخلاصة القول أنَّنا كيفما أجلنا الطرف في تلك المياه حارت افكارنا وسبَّحنا الخالق بمشاهد تلك المناظر السحريَّة التي يزيد عجب المرء منها على قدر ما يزيد التأمل في خواصها الطبيعيَّة

ومما شاهدناهُ في ذلك اليوم بعد رجوعنا من شلالات الرين برجٌ قديم شيِّد على ربوة مطلَّة على ذلك النهر بُني سنة ١٥٦٤ وجدرانهُ يبلغ سمكها ستَّة امتار وليس لهذا البرج سوى قاعة واحدة متَّسعة الارجاء وفي اعلاها قبَّة مرتفعة لها نوافذ تنيرها من

علُ . وعلى سطحها مدفعان قديمان من النحاس وللبرج اقبية كانوا يدخرون فيها المؤنة ويسجنون الاشقياء.

بعد ان زرنا الرين وشلالاتـه حان لنا الرجوع من رحلتنا - وفارقنا حينئذٍ صديقنا السويسري وبقيت انا والشقيق فركبنا القطار لنعود على غير طريقنا السابقة على مدينة بال وننتق سان غوتار

بال احدى امّهات المدن السويسريّة وحاضرة اقصى مقاطعاتها الشماليّة . والمدينة تمتدُ على ضفّتي نهر الرين في موقع غاية في الحسن والبهجة وقد مُدَّ بين الجهتين جسر كبير من الحجر طولهُ ١٩٥ مترًا وعرضهُ ١٨ م وعليه ابنية مختلفة كالمطاعم والقهاوى والمنتديات العموميّة . وعلوّهُ فوق النهر بالغ حتى ان المراكب البخاريّة تمرُّ تحتهُ بلا مانع

وبال مدينة تجارية فيها كثير من ارباب الثروة وفيها تُقام الاسواق الحافلة . واهلها اليوم يبلغون ١٢٥,٠٠٠ ويغلب عليهم لين الطبع والاستقامة في المعاملات والهمّة في ادارة الاشغال وحبّ الحرية فيتفاخرون بعاداتهم الديمقراطيّة وقد اقاموا لذلك في باحة المدينة اثرًا من رخام يشير الى فوزهم بالاستقلال الجنسي . وكان يوم دخولنا المدينة يوم الاحد وفيه تفتح المعاهد الاثرية والمتاحف العظيمة فيزورها الناس مجانًا . ودخلنا اوّلا الدار المختصّة بآثر مدينة بال القديمة فكان هناك حجر مُتحى وقد خصُّوا كل حجرة بشيء من العاديات كالاكسية العسكرية والاسلحة القديمة من ظرّان وخشب وحديد وبندقيّات يبلغ طول الواحدة اربعة امتار . وقد جُمعت في بعض القاعات الاثاث البيتيّة كالفرش والسُّرر وادوات الطبخ وآنية الطعام وغير ذلك ممّا ينطق بلسان حاله عن عادات سكّان البلد سابقًا . وقد خُصَّ معهد آخر بالآثار الدينيّة فوجدنا بينها الاواني النفيسة كالصلبان والذخائر والكاسات والاسْقُفة الذهبيّة المرصّعة بالجارة الكريمة الحكمة الصُّنع الدقيقة العمل وكذلك التماثيل الدينيّة منها بالرخام ومنها بالخشب وبينها الحليّ والحُلل الاسقفيّة والكهنوتيّة . واكثر هذه الطرائف كان يخصُّ قديمًا دير الرهبان الفرنسيسيين الذين سكنوا بال مدّة اجيال مديدة

ثم انتقلنا الى متحف اخر جمعوا فيه مآثر الفنون الجميلة من نقش وتصوير ورسوم ودُمى وهناك عجائب من اعمال والصنائع العاوم الطبيعيّة والجيولوجيا والمعادن والنبات والحيوانات المفقودة وغيرها وكلها مصبَّر على هيئتها الطبيعيّة . وهذه الآثار منتظمة في

ثماني عشرة قاعة يضيع فيها الزائر لاتساعها وبل من كثرة مناخرها وبدائعها

ومما يستحق الذكر من مباني بال بعد ان صبرت على مكايد الزمان من حريق وزلازل كنيستها الكاتدرائية اقامها الملك هنريكوس الثاني سنة ١٠٢٩ واتقن البناة هندستها وهي مشيدة بالآجر الاحمر البديع تتخلله صفائح من السبورة (ardoise) المختلفة الالوان . وجدران الكنيسة منقوشة بالتصاوير الممثلة للسيد المسيح ورسله الكرام والاخبار الانجيلية . ولهذه الكنيسة برجان يبلغ علوهما مئتي قدم بنيف . وهي اليوم في ايدي البروتستانت

ومنها دار الصناعة التي جمعت فيها كل الاسلحة القديمة التي كانت شائعة في حروب الاعصار السالفة . ومنها ايضاً مكتبتها الغنية بالمطبوعات النادرة والخطوطات البديعة

*

وفي اليوم التالي وهو الاثنين الواقع في ٢٩ آب ركبنا القطار الى مدينة اولتن قاصدين السفر منها الى نفق سان غوتار . وهذا النفق يعدّ من المشروعات الكبيرة التي قام بها الاوربيّون في عهدنا . ويجاريه اليوم نفق سمبلون الذي وصفهُ المشرق سابقاً (٨ : ٣٢١و٩ : ٦٤) وقد تكلّف المهندسون في حفر نفق سان غوتار ٥٦ مليوناً من الفرنكات ويبلغ طولهُ خمسة عشر كيلومتراً كالمسافة بين بيروت والمعاملتين وهو يصعد في قلب الجبل الى علوّ ١١٥٤ متراً . وقد تمّ حفرهُ بثماني سنوات من السنة ١٨٧٢ الى ١٨٨٠ . أمّا السفر في هذا النفق فانهُ بادئ بدء يقبض لهُ الصدر اذ يرى المرء نفسهُ منفصلاً عن عالم الاحياء داخلاً في مدفن عظيم وفي ليل دامس مدلهمّ ثم يطمئن قلبهُ بعد مدّة ويرى هناك من المناظر الطبيعيّة ما يشغل فكرهُ ويملأ صدرهُ فانّ شركة السكة الحديديّة قد تأنّقت في بناء النفق وانارت جهاتهِ بالانوار الكهربائيّة وجعلت لهُ بعض محطّات وجعلت لمياه الجبل مجاري الى غير ذلك مما يجعل اجتياز النفق من المشاهد السارّة . والسكة الحديديّة قبل دخولها النفق وبعد خروجها منهُ تمرّ في جبال وتلال وغابات واودية تتوفّر فيها المناظر البهجة التي تحيك في قلب المسافر وهو يسير من نفق الى آخر وجداول المياه المتحدّرة من اعالي الجبال تسيل على جانبيهِ يمنةً ويسرةً على هيئات شائقة

ثم قضينا الأيام التالية في بعض الاسفار الى جهات اخرى من سويسرة حتى تجاوزنا حدودها وبلغنا مدينة ميلانو الايطالية الشهيرة بآثارها البنائية والفنية ونحن نضرب هنا عن وصفها لنقصر كلامنا على سويسرة . وكان آخر ما شاهدناهُ عند رجوعنا الى سويسرة فجعلناه كذلك ختام سفرتنا الى مدينة جنيفة عاصمة هذه البلاد

وجنيفة اسم لاحدى معاملات سويسرة الصغيرة وخطرها بوجود العاصمة فيها . وهذه المدينة موقعها في جنوبي غربي البلاد عند مخرج نهر الرون من البحيرة المعروفة باسمها وسكانها نحو ١٢٠,٠٠٠ . والمدينة قديمة العهد وكان احسن ما فيها منظرها على شواطئ بحيرتها وكانت ابنيتها حرجة واطئة وازقتها صغيرة ضيقة الّا انّ اهلها لم يزالوا منذ خمسين سنة يجدّدون مبانيها ويحسّنون هندستها ويفتحون لها الشوارع وينظّمون الساحات والحدائق ويشيّدون لها المعاهد الكبيرة حتى صارت تعارض اليوم حواضر اوربة . وفي احدى ساحاتها اثر لاحد المحسنين الى المدينة اوقف على ترميمها وتحسينها عشرين مليونًا من الفرنكات اسمهُ برونسويك (Brunswick) والاثر بناء من رخام على نسق قبّة ميلانو جُعل في وسط مقام تحدق به زهور وتجري المياه وعلى مقدّمته اسدان من رخام يهاب الانسان منظرهما لدقّة صنعهما

اما مناظر جنيفة الطبيعيّة فحدّث عنها ولا حرج فانّ بحيرتها والنهر الخارج منها والجزائر التي في وسطها وضواحي المدينة والجبال الشاهقة المحدقة بها المكسوّة بالثلوج المتجمّدة تملأ العين وتسبي القارب فقضينا هناك ساعات نعدّها اطيب آنات حياتنا واعذبها واطربها ولو حاولنا وصف كل ما عاينّا فيها لخرجنا عن الحدود التي تحرّيناها . فلا نذكر من ذلك الّا زيارتنا الى بستان دعوهُ بستان المياه الغزيرة لكثرة احواضها ومجاريها وفي وسطها نافورة يفور منها الماء الى علو تسعين مترًا فينعكس على شبه المظلّة الى مسافة بعيدة بهندسة رائقة وهم ينيرونها بالليل بالانوار الكهربائيّة . يقال انها اعظم نافورة تُعرف في العمور

هذا بعض ما عدّ رويناه لمواطنينا الاعزّاء رغبةً منّا ان يذوقوا شيئًا من تلك الملذّات التي حظينا بها في تلك الرحلة التي لم يخطر على بالنا ان نتمتّع يومًا بمثلها في حياتنا

مطبوعات شرقية حديثة

XPYCOCTOMIKA : Studi e ricerche intorno a S. Giovanni Crisostomo a cura del Comitato per il XV centenario della sua morte (407-1907), *Roma*, *Pustet*, 1908. fasc. II et III, 245-1152.

ابحاث في سيرة واعمال القديس يوحنا فم الذهب بمناسبة يوبيله المئوي

هذان القسمان الاخيران من تلك الابحاث التي أجمع على نشرها اولئك العلماء الذين حضروا في عاصمة الكثلكة الاعياد الجليلة المقامة بمناسبة المئة الخامسة عشرة لوفاة القديس يوحنا فم الذهب وقد مرَّ لنا وصف قسمها الاول (اطلب المشرق ١١ : ١ و٨٧١) . والقسم الثاني من تلك « الخريسوستيميات » مدار قطبه على ليتورجيَّة الذهبي الفم واصولها واتساع دائرتها والتغييرات التي طرأت عليها وترجمتها الى لغات شتى . وهذا القسم يبلغ وحده ٧٥٠ صفحة قد افتتحهُ حضرة الاب البندكتي دون بلاسيد دي ميستر (D. Placide de Meester) ببحث خطير عن اصول الليتورجيَّة النسوبة الى يوحنا فم الذهب فتتبع احوالها منذ اول ما عُرفت في الكنيسة على عهد صاحبها الى ان بلغت في القرن الرابع عشر صورةً ثابتة بثبت عليها وذلك بعد ان تصرَّفت فيها الكنيسة البوزنطيَّة بعض التصرُّف كزيادة صلوات ورتب واستبدال بعض الاقسام بغيرها . وقد راجع المؤلف في بحثه هذا عدداً عديداً من المخطوطات القديمة المحتوية لتلك الليتورجيَّة ليقابل بينها ويثبت اصلاحاتها . ويلي هذا البحث درسان الاوَّل الراهب الكبتاري جنَّا اوشر (G. Aucher) في الترجمة الارمنيَّة لليتورجيَّة القديس يوحنا فم الذهب وما بقي منها في الطقس الارمني . والثاني لحضرة الاب قسطنطين باشا في الترجمة العربيَّة لليتورجيَّة الحنَّاويَّة وقد اثبت هناك نسخةً وجدها في احد المخطوطات من القرن الثامن عشر كان تابلها الطيب الذكر افتيموس صيفي على نسخة خُطَّت في السنة ٦٧٦٩ للعالم اي ١٢٦١ للمسيح الا انَّ حضرة الاب يزعم انَّ اصل تلك الترجمة من القرن العاشر ولم يأتِ على ذلك ببرهان قاطع . وفي اثر هذين الدرسين مقالة حضرة الاب كبرلُس شارون التي وصفنا محاسنها (في المشرق ١١ : ٩٥٥) . وعقيب هذه المقالة اربعة ابحاث في ليتورجيَّة القديس في اللغات الرومانيَّة لاحد

اساتذة المدرسة الاكليريكيَّة في ترش الاب اونر (CH. Auner). ثم في علاقة الليتورجيَّة الخاصة مع الليتورجيَّة المنسوبة لقسطور والليتورجيَّة الشائعة في الكنائس السريانيَّة للاديب بشتارك (A. Baumstark) وهو بحث غاية في الافادة عقَّبهُ الابوان الكسيس بيتروفسكي (A. Petrowski) الروسي ويوسف بوتشيان (G. Bocian) الرومي بمقالتين في ترجمة طقس يوحنَّا فم الذهب الى اللغات الصقليَّة. وبهما ينتهي القسم الثاني. أما القسم الثالث فيحتوي على ابحاث اخرى منها مبسَّط للقديس نشرهُ الخوري الفاضل الياس بطارخ من اساتذة مدرسة الآباء البيض في الصلاحيَّة ثم مقالتان حسنتان في تاريخ ذخائر القديس يوحنَّا والتصاوير التي تمثِّل سحنتهُ للاستاذ ڤوشر بكي (W. Becchi) والراهب الباسيلي الطرن روكي (A. Rocchi) من رهبان غروتا فرَّاتا. فمن هذا النظر الاجماليّ يرى قرَّاؤنا ما يحتويهِ هذا المجموع من الآثار النفيسة فعساهُ ان يروج في كل جهات الشرق ليزيد بهِ اقبال مواطنينا على درس اعمال الذهبي الفم والتقفي بامثالهِ الشريفة

ل. ش

I KONVERSATIONS-LEXICON. 3te Aufl., 8 vols. gr. in-8, *Herder, Fribourg-en-Brisgau*, 1902-1907.

II WETZER UND WELTE'S KIRCHENLEXICON oder Encyklopaedie der Katholischen Theologie und ihrer Hilfswissenschaften, 2te *Aufl.*, 12 *vols gr. in-8, ibidem, plus un vol. de Tables ou Index.*

دائرتان علميَّتان كاثوليكيتان

انَّ اتساع العلوم وتقدُّمها في ايامنا يقضي باصطناع دوائر علميَّة لكل صنف منها ليسهل على الادباء والكتبة الرجوع اليها ولاسيما اذا صعب عليهم مراجعة الكتب العموميَّة وتآليف الخاصَّة. وقد سبق الشرق فعرَّف صدور بعض هذه المصنَّفات الجامعة ويزَّ فوائدها. ومما اتحفنا بهِ آخرًا محلّ هردر في مدينة فريبورغ من اعمال المانيَّة دائرتان للمعارف الكاثوليكيَّة سعى بنشرهما صاحب هذا المحلّ بمساعدة جلَّة العلماء الكاثوليك في المانيَّة. وقد راجت هاتان الدائرتان حتى بلغت الواحدة بعد زمن قليل طبعتها الثالثة والاخرى الطبعة الثانية وكلتاهما باللغة الالمانيَّة. اما الدائرة الاولى المدعوَّة (Konversations Lexicon) فجامعة للعلوم والمعارف العموميَّة ولا تختصّ بعلم منفرد فهي كدائرة لاروس (Larousse) الشهيرة. وهذه الطبعة الثالثة منها قد استأنف اصحابها

كتابتها لتصحيحها وتحسينها حتى يجوز القول فيها انها كتاب جديد موافق تمامًا لاحوال المعارف وترقيها الحديث. ومن مزايا هذه الدائرة انها تشمل كل المواد الكاثوليكية والعلوم الدينية فضلًا عن الدينية فتعرّفها بكل ضبط وتدقيق وفقًا لمعلومات اقتبسها الكتبة من مصادر ثقة. نعم انّ هذه الدائرة قد كُتبت خصوصًا لاهل المانية فتفيدهم قبل الكل عن الامور المنوطة ببلادهم الّا انها لا تقتصر على ذلك بل تمتدُّ الى المعارف الشائعة في بقية البلاد حتى اقطارنا الشرقية. ومما يستحقّ الذكر في هذه الدائرة تراجم مشاهير الرجال القدماء والمحدثين فانها في الغالب تجمع باسطر قليلة لباب اعمال احيائها. وتصفهم وصفًا صادقًا خاليًا من كل غرض شخصي. ويزيد قيمة هذه الدائرة ما أُودع فيها من التصاوير والرسوم والخوارط لتعريف كل مادّة تقتضي تلك الصور والنقوش. ذلك الى هوادة سعر هذه الدائرة التي تبلغ ثمنًا و ١٤,٠٠٠ عمود وتباع بمئة مرك فقط

اما الدائرة الثانية فدينيّة محضة جمع فيها مؤلفوها الكاثوليكيّون على طريقة المعجمات كل العلوم الدينيّة ولاسيما اللاهوتيّة وما يلحق بها من المعارف. وكانت الطبعة الاولى صدرت باسم العالمين ڤتسر (Wetzer) وڤالت (Welte) اما هذه الطبعة الثانية فقد أنست الطبعة الاولى بما اصابت من التحسينات في كل اقسامها بهمّة المستأنف لطبعها السيد كولن (M^gr. Kaulen) الشهير بعلومه. وقد استدعى السيد المومى اليه نخبة الكتبة الكاثوليك ليساعدوهُ في هذا العمل فاجاب الى دعوته ثلاثة كاردلة واثنان وعشرون اسقفًا وعدد وافر من كهنة ورهبان واساتذة الكليّات الالمانيّة فكتب كل منهم في هذه الدائرة فصلًا او فصولًا في العلوم التي اختصّوا بها من لاهوت او فلسفة او آداب او تاريخ ديني او مسائل اجتماعيّة. وفي آخر كل مادّة اسم كاتبها ليكون القارئ على بصيرة من علمه وتزيد ثقتهُ بكلامه وقد بلغ عدد هؤلاء المصنّفين نحو الثمانية. فترى بذلك تضافُر الالمان على تصنيف هذه الدائرة لتكون في ايدي الكاثوليك كسلحة يتّخذون منها بزّة جهادهم لمحاربة الكفر وردّ الاضاليل العصريّة وكمنهل صافٍ يستقون منهُ التعاليم الصادقة التي تلقّوها من اجدادهم وورثوها بسلسلة وثقى من الرسل الاطهار وأحبار الكنيسة والمجامع المسيحيّة ومصنّفات الاباء. وكان بودّنا ان ناخذ بعض ابواب هذه الدائرة وننقلها الى العربيّة ليعرف الشرقيّون كم

نحن محتاجون الى دائرة علميّة في لغتنا العربيّة يقوم بتصنيفها كل علماء الشرق فيودعونها خلاصة المعارف الدينيّة لاسيما الشرقيّة فانّ مشروعاً كهذا يؤدي لاهل بلادنا خدماً لا تُقدَّر قيمتها. فانّ الدائرة البستانيّة لا تتعرّض الى الابحاث الدينيّة وربما دخل فيها مزاعم تحتاج الى اصلاح او تفنيد. وزد على ذلك ان هذه الدائرة الى الان لم تتمّ وعدّت اقسامها الاولى حتى لم تَتُم. والقة لتقدُّم العلوم والاكتشافات التي تجري يوماً بعد آخر. وفي الختام نتمنّى الدائرة الالمانية كل رواج ونهنئ محل هردر الذي انجز العمل على غاية ما كان يُرام من حُسن الطبع والاتقان ر. س

I ETUDES DE LINGUISTIQUE. I, PHONÉTIQUE DES PARLERS de Chio par **H. Pernot**, avec 1 Carte et 85 fig., 1907. in-8°, pp. 571

II GIROLAMO GERMANO: GRAMMAIRE ET VOCABULAIRE DU GREC VULGAIRE publiée par le même d'après l'éd. de 1622. Thèse complémentaire, 1907. in-8°, pp. 320

النبرات الصوتية في لهجة اهل ساقس — اصول اللغة اليونانيّة الحديثة

المسيو پرنو معلّم اللغة اليونانيّة الحديثة في مكتب اللغات الشرقيّة الحيّة في باريس قام يكتب بشرح اصول تلك اللغة لتلامذته بل اراد ان يرسم لهم النبرات الصوتيّة التي اعتادها اليونان في كلامهم فعمد لهذه الغاية الى بعض الادوات الراسمة للصوت وحركات الجهاز الحلقي كالفونغراف وغيره وجعل بازائها عدداً عديداً من اهل ساقس اخذهم بين الصبيان والشبّان والكهول والشيوخ والنساء فكانوا يتكلّمون بلغتهم عند قوهة تلك الادوات بحيث يرتسم صوتهم في دقته وضخامته وارتفاعه وامتداده وانتقل مدّة ثانية اشهر من بلدة الى بلدة لهذه الغاية حتى جمع من تلك النبرات ما مكّنهُ من درس احوال اصوات المتكلّمين ومن وضع قوانين مقرّرة في ذلك. وهذه الطريقة العلميّة هي احسن طريقة لضبط تلك الاصوات وتعريف خواصّها. فنهنئ الكاتب على تحقيق امانيه واثبات رأيه بالحجج الدامغة التي لا يمكن تفنيدها. وقد كتبنا للمؤلف رسالةً لنثني على عمله ونلفتهُ بعض ملحوظات يمكنهُ الاستفادة منها لمعارضة لهجة ساقس مع لهجة بر الاناضول — وقد اضاف المسيو پرنو الى تأليفه ملحقاً يزيدهُ حظوى في اعين العلماء. وذلك انهُ وقف على كتاب ألّفهُ احد الاباء اليسوعيين في اصول اللغة اليونانيّة الحديثة ومعجم الفاظها وهو الاب جيرولامو جرمانو احد الرسلين الى ساقس في اوائل القرن السابع

(١٦٣٢ — ١٥٦٨) وعرف ما في تجديد طبعه من الفوائد بعد ان نفد طبعة منذ زمن طويل . فاعاد طبعهُ وحشاهُ بالملحوظات المفيدة . ومما نشكر عليهِ المسيو برنو اقرارهُ بانَّ هذا التأليف احسن واضبط ما وُضع سابقًا في اللغة اليونانيَّة الحديثة كما انَّهُ بيَّن ان بعضًا من كتبة عصرنا سرقوا من هذا الكتاب اشياء متعدّدة دون ان يعلنوا باسم الاب جرمانو وكتابهِ . فنكرّر شكرنا للمسيو برنو على هذه التحفة الجديدة التي خدم بها الدروس اليونانيَّة

ل . ر

Syrische Rechtsbücher herausgegeben und übersetzt von Eduard Sachau, II Bd. *Berlin, Reimer*, 1908, XXXIV-211

التآليف السريانيَّة في الحقوق الشرعيَّة

هذا جزء ثانٍ من سفر جليل سبق لنا وصفهُ قبل سنتين (المشرق ١٠ : ٥٧٠) . فقد بيَّنا اذ ذاك ما للكلدان والسريان من التآليف في الفرائض الشرعيَّة والحقوق الكنسيَّة التي كان معظمها مدفونًا في خزائن الكتب ريثما يخرجها من زواياها اصحاب الفضل وأولو البحث والتنقيب . وكأنَّ المستشرق الشهير ومستشار الدولة الالمانيَّة في عاصمة برلين الدكتور ادورد ساخو اوقف نفسهُ لهذه المهمَّة . وهذا القسم الثاني قد ضمَّنهُ ثلاثة تآليف خطيرة من اعمال بطاركة النساطرة في الحق القانوني كُتبت بين القرن السابع والتاسع للمسيح اوَّلها لحنانيشوع نحو السنة ٦٦٢ والثاني لطيموثاوس الكبير المتوفى سنة ٨٢٣ وآخرها ليشوع برتون خلف طيموثاوس . والتآليف الثلاثة منقولة عن مخطوطات سريانية قدَّمها للمتحف البريطاني في رومية الطيب الذكر السيِّد اقليمس داود وهي اليوم في الخزانة الواتيكانيَّة . والاوَّل منها يحتوي احكامًا شرعيَّة لحنانيشوع ارسلها الى اساقفة ورهبان وكهنة جوابًا على اسئلتهم او حكمًا فصلًا على مشكلاتهم وهي في ٢٥ بابًا . والثاني هو مجموع قوانين بيعيَّة عددها ٩٩ مدارها على الرسوم والفرائض النصرانيَّة كالزيجة والطلاق والوراثة وغير ذلك . اما الكتاب الثالث ففيهِ احكام ونواميس وقوانين يبلغ عددها ١٣٠ في الطقوس والرتب والفرائض الاهليَّة وغيرها . وكل هذه التآليف قد نشرها الدكتور ساخو باصلها الكلداني ونقلها الى الالمانيَّة واضاف اليها شروحًا وملحوظات متعدّدة وختمها بالفهارس المفيدة . فهذا الكتاب كما ترى من انفع الكتب لتعريف الاصول الشرعيَّة الجارية عند الشرقيين

وكثير منها صدى للشرائع البيعيَّة الموروثة من تعاليم الرسل والآباء الاولين قبل انفصال الناطرة عن الكنيسة الجامعة. فنحضُّ محبي الآثار الشرقيَّة على اقتنائهِ ل.ش

BARON V. R. ROSEN Nekrolog sostawil N. Wieseloffsky, St *Pétersbourg*, 1908

ترجمة حياة البارون ف. ر. روزن

هما الجديدان لا يزال دولابهما دائرًا والمرء لا يشعر بدورانهِ الحثيث حتى يُخفي بهِ الدهر او يُصاب عزيز لهُ بسهم المنون. وها قد مضى نيف وسنة على وفاة المستشرق الروسي الشهير البارون ڤون روزن الذي سبق المشرق (١١ : ١٧١) فاثبت جملةً من حياتهِ. ولا يزال ذكرُ هذا العالم العلام مطبوعًا في قلب تلامذتهِ ورفقائهِ كأنَّ الأيام لم تزدهم الَّا اسفًا على فقدهِ. ومما يدلُّ على شدَّة تعلُّقهم بشخصهِ الكريم ما كتبهُ او خطب بهِ اكثرهم في مدحهِ وبيان فضلهِ حتى انهُ لو جُمع ما نشروهُ في ذلك لأَلَّف مجلَّدًا ضخمًا. وكفى برهانًا على علو مقامهِ في النفوس ما تُلي فيهِ من الخطب في جلسة خصوصيَّة عقدها القسم الشرقيّ من جمعيَّة الابحاث على الآثار القديمة في تشرين الثاني فاطنب الخطباء في محامد ذلك الرئيس الهمام والاستاذ الفاضل. ومما بلغنا من هذا القبيل ترجمة لحياة الفقيد ألَّفها العلَّامة ڤيسياوڤسكي الذي نيطت بهِ آخرًا رئاسة القسم الشرقي من الجمعيَّة الموما اليها. وكان حضرة المؤلف صديقًا للبارون يعرفهُ منذ حداثة سنهِ فجاء كلامهُ ابلغ معنًى واوفى بالغرض المقصود فوصفهُ وصفًا يليق بفضلهِ ويثبت سامي مقامهِ بين العلماء المستشرقين. فنشكر لجناب الكاتب حسن مسعاهُ ونتمنَّى للمتخرِّجين على البارون ان يتتبَّعوا آثارهُ ويحيوا من بعدهِ معارفهُ. وقد قيل ان من خلَّف لم يمت ا. كرتشڤوفسكي

Romans de Guy d'Aveline: I VERS LA LUMIÈRE. II IMPÉRATRICE ET VESTALE. III CATHERINE D'ALEXANDRIE. IV ATTILA. V LE SECRET DE ROCAMADOUR, *Paris, Ch. Amat*.

روايات تاريخية لصاحبها غوي دافلين

انَّ الروايات المختلفة تتفكَّه غالبًا الخيَّة وتهيِّج العواطف والاحساسات دون ان تخلف من فعلها اثرًا باقيًا. فعرض لبعض القصَّاصين أن يضمنوا تلك الروايات احداثًا

تاريخيَّة تزيد نفعها للقرَّاء اذ تجمع الافادة واللذَّة معاً . والروايات الخمس التي ترى هنا عنوانها وضعها بالفرنسويَّة احد الكتبة المحدثين على هذا المنوال فانهـا تحتوي بعض الوقائع الصحيحة مفرغةً في قالب وهميّ . فمنها ما يصف احداثاً شرقيَّة كالاوَّل الذي مداره على اعمال السيِّد المسيح وتعاليمه الالهيَّة . والثالث يصف احوال الاسكندريَّة واستشهاد القديسة كاترينا . ومنهـا ما يختصّ بأحداث جرت في الغرب كالثاني الذي يصف رومية في عهـد نيرون وظهور النصرانيَّة فيها وكالحكايتين الأُخريَين عن اتيلا الفاتح وتدمير بلاد غاليا . فكل هذه الروايات مكتوبة بقلم سيَّال تمتزج احوالهـا امتزاج الماء بالراح فلا يباشر القارئ مطالعتهـا حتى يرغب في مواصلة قراءته الى آخر الكتاب . فنحث محبي القصص ولاسيما الاحداث ان يقتنوها فانها افضل من كثير من الحكايات التي يتداولهـا البعض وهي تصلح لأن تُعطى في المدارس كجوائز للاحداث وقد أثنى عليها ارباب الدين والادباء معاً ونال كاتبها بسببها امتيازات شرفيَّة ل . ش

نبذة تاريخية

فيما جرى لطائفة الروم الكاثوليك منذ سنة ١٨٣٧ فما بعدها

بقلم السعيد الذكر بطريركها مكسيموس مظلوم

عُني بطبعها الخوري قسطنطين الباشا ب . م . (زحلة ١٩٠٩ ص ٢٥٧)

انَّ المشروعات الخطيرة التي قام بها الطيِّب الذكر السيِّد البطريرك مكسيموس مظلوم خدمةً لطائفته ليحلَّ ربقتها ويحرِّرها من عبوديَّة المضايقين عليها لم تُنشر حتى اليوم تفاصيلها خوفاً من مراقبـة المطبوعات . وكان كثير من البراءات والصكوك والتقارير التي تتضمَّن تلك الاخبار مطموراً في مكاتب الخاصَّـة وكادت تأخذه يد الضياع . فقد حدا بحضرة الاب قسطنطين الباشا حبُّـهُ لأمَّته ان يبحث عن تلك الاوراق الثمينة حتى اسعده الحظ على وجودها فجمعها ورتَّبها ونشرها بنصوصها ليستطيع المؤرخون المدقِّقون ان يقتبسوا من انوارها لكتابة تاريخ صادق لتلك الحوادث المنسيَّة التي اولت السيِّد البطريرك فخراً عظيماً وذكراً مخلَّداً . وقد قدَّم حضرة الاب على هذه الآثار مقدِّمةً ذكر فيها بعض الامور العموميَّة عن طائفة الروم الكاثوليك منهـا

اصل تسميتهم بالملكيين. وقولهُ في ذلك صواب الّا انَّ استشهادهُ في ذيل الصفحة د « بمعاهدة عمر لصفرونيوس » ليس بمقنع اذ ينكر العلماء صحة المعاهدة التي يتداولها اليوم بعض الناس. امَّا المعاهدة الاصليَّة فلا يُعرف لها أثر صحيح. وكذلك ادّعاؤهُ بانَّ « لقب كاثوليك لها قديم قدم النصرانية » يحتاج الى ايضاح. فان لقب كاثوليك لم يُعطَ لكنيسة خصوصيَّة بل هو سمة كنيسة المسيح في كل البلاد شرقًا وغربًا. فبقولهِ « لها » جعل احدى مميّزات الكنيسة العامَّة كسمة كنيسة خاصَّة. ثم انهُ من المعلوم انَّ الروم الملكيين لم يُطلق عليهم اسم الكاثوليك قبل القرن الثامن عشر فعُرفوا به تمييزًا لهم من غير الكاثوليك

لبنان والدستور العثماني

بحث سياسيّ قانوني تاريخي بقلم بولس مسعد

طُبع في مصر بمطبعة المعارف ١٩٠٩ (ص ٩٢)

بنسبة اعلان الدستور قد خطر على بال اللبنانيين ان يُولوا جباههم امتيازات ونعمًا جديدة فكثر القال والقيل وربمَّا خُدع بعضهم بظواهر الانقلاب الجديد فصرفوا بصرهم عما في ايديهم من الخير الثابت ليطلبوا خيرًا موهومًا. على ان غيرهم من العقلاء تصدَّوا لهؤلاء الجهال واوقفوهم عند حدّهم وردُّوا على مزاعمهم الباطلة. ومن جملتهم جناب الاديب بولس افندي مسعد الذي صنَّف هذا الكتاب وبحث فيهِ « بحثًا سياسيًّا قانونيًّا تاريخيًّا في موقف لبنان الحاضر ازاء الدولة العثمانيَّة قبل الدستور وبعدهُ » فافتتحهُ بذكر جغرافيَّة لبنان فبيَّن موقعهُ وحدودهُ ومساحتهُ وسكَّانهُ ثم عرَّف تقاسيمهُ الاداريَّة ونظامهُ وما منحتهُ الدول من الحقوق والامتيازات بعد حوادث السنة ١٨٦٠. ثم اخذ المؤلف ينتقد اقوال القائلين الى انتهاك حرمة هذا النظام والطالبين الانضمام الى الدولة فبيَّن غلطهم وفنَّد تعليلاتهم الواهنة مستندًا في قولهِ الى السياسيين المحنَّكين. وقد اعجبنا من اقوالهِ ما زيَّف بهِ مزاعم المتحامين زورًا على الاكليريس مع ما اداهُ من الخدم العديدة للوطن واهلهِ مدَّة قرون متواصلة. وخلاصة القول انَّ كل هذه الفصول موزونة بميزان الفكر تستحقُّ اعتبار أُولي النظر والتعقُّل وقد أُلحق الكاتب هذا القسم بمختصر لتاريخ الجبل دعاهُ « صفحة من تاريخ لبنان » وعندنا انهُ كان الاولى بهِ لو

ضرب عن تلك الصفحة صفحاً لأنَّ فيها اموراً كثيرة لا تنطبق مع التاريخ الصحيح كاقوالهِ عن اصل الفينيقيين وعن المردة والصليبيين والترّ والروم ولو اردنا ذكرها بالتفصيل لطال بنا الكلام ل.ش

الكلم المنظوم

قالهُ جميل صدقي الزهاوي

القسم الاوَّل. طُبع بالمطبعة الاهلية في بيروت (١٣٢٧ ص ١١٨)

يفتخر المسلمون في العراق برصافيهم وزهاويهم كما يتباهى المصريُّون بحافظهم وشوقيهم ورافعيهم واهل الشام بخيَّاطهم وسلَّامهم. ولكلٍّ هؤلاء الشعراء مآثر طيبة منها مجموعة ومنها متفرِّقة يتداولها الادباء ويتناشدها البلغاء. وقد انتهى الينا آخراً القسم الاوَّل من منظومات الشاعر العراقي العصري جميل صدقي الزهاوي الذي كانت تزدان بقصائدهِ الجرائد المصريَّة وهو ينشرها غالباً فيها بامضاء مستعار. فعنَّ لناظم عقدها ان يجمعها في كتاب مستقل ليتسنى للادباء جني ثمرها وتنسُّم ريَّاها وقد اثبتها صاحبها الفاضل كما حضرت لهُ دون ترتيب خاص في المعاني او القوافي فينتقل القارئ من وصف الى مديح الى رثاء الى حماسة الى غزل دون سأم او ملل كما يتحوَّل زائر حديقة غنَّاء من زهر الى آخر ومن ثمرة طيبة الى اطيب منها. وكثير من هذه المنظومات قالها الشاعر الحرّ في أيَّام الاستبداد. فاشار بها الى سوء حال البلاد. وما يوملهُ من اصلاح الفساد. فعسى ان تكون الاحوال الجديدة طبق امانيهِ بظل الرشاد ل.ش

هدايا أُرسلت الى ادارة المشرق

١ منشور غبطة السيِّد الياس بطرس الحويك بطريرك انطاكية. وسائر المشرق الى اكليروس الطائفة المارونية

٢ منشور رعائي لنيافة السيد بولس بطرس الثاني عشر بطريرك قيليقية وجاثليق طائفة الارمن الكاثوليك

٣ رواية عودة قلب الاسد. تأليف القصَّاص الشهير والمؤرِّخ بقلم سليم افندي الخازن اللبناني نُشرت تباعاً في جريدة مرآة الحقّ في نيويورك (١٩٠٨ ص٢٩٨)

٤ قانون اخويَّة الانفس المطهرة المارونية اللبنانية (مطبعة الاجتهاد ١٩٠٩ ص ٤٨)

٥ برنامج اخوية الانفس المطهرة المارونية لسنتها التاسعة عشرة (مطبعة التوفيق ١٩٠٩ ص٣٥)

٦ فرض اخوية المذراء البريئة من دنس الخطية الاصلية . قطع صغير ص ٤٨ يباع في مكتبة المدارس لصاحبها يوسف افندي صفير

٧ فرض اخوية المبتة الصالحة للاب بيرون اليسوعي عربهُ عن الفرنسوية الخوري نقولا صفير قطع صغير ص ١٢٠ يباع في المكتبة عينها

٨ مناثر الطفيليات وضعهُ وعلَّق حواشيهُ بعض آباء الرسالة اللبنانيَّة المارونيَّة . طبع في المطبعة الكاثوليكيَّة (١٩٠٩ ص٢٧٢) وسنعود الى ذكرهِ في عدد قادم

٩ تقرير على تاريخ الادبيات العربيَّة مقدَّم لصاحب الدولة الامير احمد فؤاد باشا رئيس مجلس الجامعة المصرية من صالح علي بحماية الريّ بنظارة الاشغال العموميَّة (١٣٢٧-١٩٠٩ بالعربية والفرنسويَّة والانكليزية

شذرات

نفثات الاسحار في سيدة أيار وردتنا هذه القصيدة من نظم حضرة المنسيور بطرس حبيقة وعدد الجلَّة على وشك تمامهِ فلم يسمح لنا ضيق المكان ان نذكر منها الَّا بعض ابياتها . وهذا مطلعها :

أيا ايَّار ما اجمل سناكا وما احلى الطبيعةَ في حلاكا
نسيمك ينعش الارواحَ حتَّى يُحَسِّدنا النعيمُ على صباكا
لنا فيك الحياة على رواء ولا خوى سواها في سواكا
فقربُك عنبرٌ وسماك درٌّ وماؤك كوثرٌ يروي ثراكا

الى ان قال :

عليك البكرُ قد خلعت وشاحاً يزيِّي الطهر يحتبك احتباكا
هي البكر التي لا عيب فيها يقصِّر عن مدارِكها حيَاكا
وعذراء المذارى مَن يداها من الآثام مزَّقتا الشباكا
وداست راس ابليس وسادت على قوَّاتهِ حتَّى تشاكى
الهي انت لم تخلق نظيرًا لها بين الملائكة في سماكا

حتى ختمها بقولهِ :

لأنتِ ملاذ مبتئسٍ وعانٍ ونحنا عنكِ نطلبُ انفكاكا
فكوني عونا طردًا وعكسًا لمختتم هنا حلو هناكا

اسد لوسرن قد ورد في المشرق (ص ١١٨) في سياحة سويسرة وصف هذا الاسد الذي يُعدّ من تحف المصنوعات . الَّا ان الراوي لم يُصب في بيان

معناهُ فنبَّهنا على ذلك احد الادباء وافادنا ان هذا الاسد المجروح لم يدلّ على سقوط آل بربون بل نحتهُ احد كبار المصورين ذكرًا لامانة الحرس السويسريّ الذي كان في خدمة الملك لويس السادس عشر فدافع هؤلاء الابطال عن البلاط الملكيّ وماتوا كرماء. وهم يردُّون هجمة الثائرين الذين هجموا على قصر الملك وذلك في ١٠ آب سنة ١٧٩٢ واسماؤهم مرقومة على لوح من الرخام في مقام مجاور للكهف وبينهم احد الشرفاء من أسرة دي مَلِيَرْدوس الشهيرة في سويسرة. ودونك صورة الاسد:

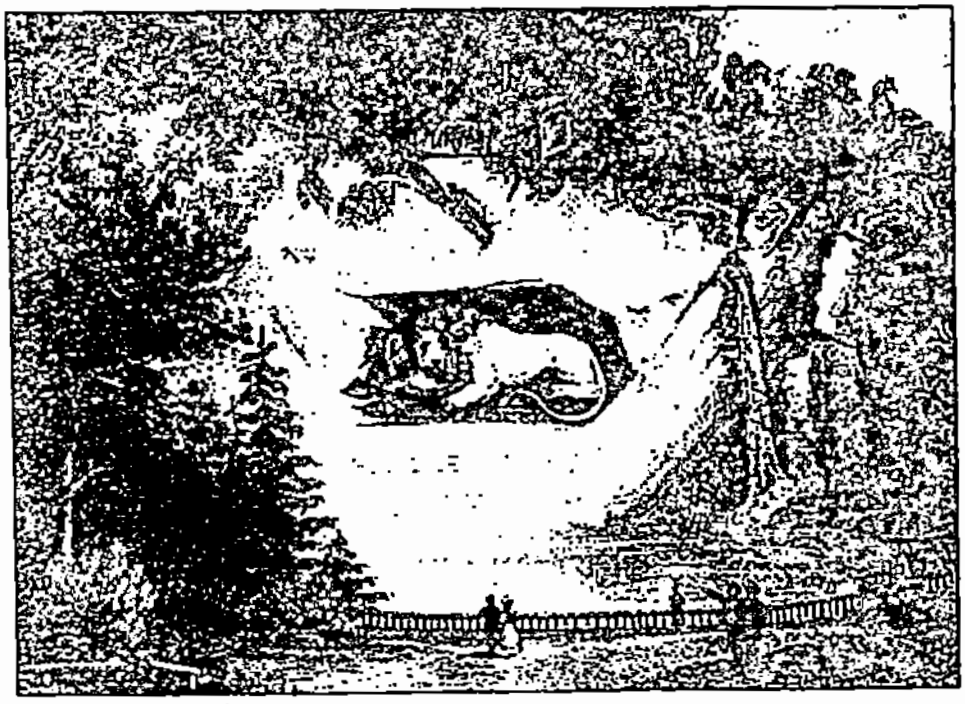

حرّيّة الاقلام — من نظم مكاتبنا الاديب الشيخ احمد افندي تقي الدين المحامي القانونيّ:

قد آن للأقلام ان تتكلّما ... من بعد ما قطَرَ المدادُ بها دَما
وخلا مجالٌ للمقيَّد فاشتكى ... أوَ تعتبُ المظلومَ ان يتبسّما
حُبست ابيّات النفوس على ظما ... فرَغِبْن في الاصلاح نقمًا للظما
حتى مللنَ من القيود فجاءها ... حزبُ الاباء بإخمصَيْهِ محطّما
فتجارتِ الصُّحف الاسيرة وانبرى ... قلمُ الاديب مكبِّرًا ومعظّما

وتفجّرت مدد النفوس كأنّها بركانُ نارٍ باللهيب تظلّما
واستقبل اقوم النيام فتاتهم في يقظةٍ ولكم غشتهم نوّما
يُغضُون من حذر الهلاك على قذًى ان القذى في العين مجلبةُ العمى
كم اشعلوا قبسًا بحالكة الدُّجى واضأهم ليلُ السياسة مظلما
حتى اذا جاد الالهُ بنظرةٍ بكرَ الفلاح مصلّيًا ومُسلّما
هي نعمة نسج الاباءُ بُرودها فعلى الرعيّة أن تسوس الأنعما
هي مُزنةٌ من فضل دستورٍ همَتْ فعلى الثرى شكرُ السحاب اذا همى

*

عيد الحياة ألا فُديتَ بأنفُس احييتَها ومنعتَها ان تظلما
هلّا رأيت لغير شعبك مظهرًا يحكي بهجته القيامة في السما
وسمعتَ في الآفاق صوتًا صارخًا الجيش قد أحيا الرعية بعد ما...
وشهدت في بيروت حاضرة النهى قسًّا يصافح بالمحبة مُسلما
ووعيتَ توقيعَ الاخاء مرنّمًا لحن التحالف والرقيّ مُرنّما
مات التعصُّب في الضمائر بعد ما عاش الزمان بموتها متحكما
وقضى التحزُّب بالخمول مكفنًا وجزاؤه في مذهبي ان يُرجما

*

أبني اليراع ترفّقوا فمن الهوى ألّا تسدّد بالضلال الاسهما
ان الجرائد كالطبيب عدوُّها داء النفوس وهمُّها ان يُعدما
فعلى المداوي قبل اعطاء الدوا جسَّ المريض وفحصهُ مستفهما
ان البلاد كثيرةٌ امراضُها فعلى المؤاسي ان يداوي الأزما
فعلى الجرائد لن تكون حكيمةً تجتثُّ من داء النفوس الموّما
وعلى الرعيّة شكر حزب الاتحا د فانهُ أعلى السجين واكرما

ونال عن لسان لبنان مخاطب الحرية (من مقالة) :

كم انا مشتاق الى وصلكِ كم انا مهجور على هجركِ
تركتني الشقى بهول الذرى فشاب رأسي من دجى صدكِ
وعافني كل اديب سعى لوطن ساد به عرشكِ

ومضّني كل يراع نأى من شدة الضغط الى قربك
حتى قضى الله بان ترجعي بكل تكريم الى اهلك
فانت لي ان شئت ولكن انا بسندٍ سُجّل وقتاً لكِ

وقال يوم اعلان الدستور بديهاً في حفلة :

يا دولةً نشطت من ضعفها فقدت اعجوبة الناس من عُربٍ ومن عَجم
بالأمس قد دُفنت في رمس ظلمتها واليوم قد بُعثت من عالم العَدَم
فعززت مبدأ الدستور وانتصرت بالسيف والسيفُ لم يُخضب بلون دَم (١
فلتحي يا مجلس النوّاب منتصراً تعيد للشرق مجد السيف والقلم

❁ المعرض الوطني العثماني ❁ أرسلت الينا لائحة هذا المعرض الذي أُجل افتتاحهُ الى اوّل آب من السنة الجارية في مدينة زحلة « تحت رعاية واهتمام حضرة الوزير الخطير دولتلو يوسف باشا متصرف جبل لبنان » . واللائحة المذكورة تبيّن ما للمعارض في البلاد عموماً وفي الشأم خصوصاً من الفوائد للمصالح الوطنيّة كتنشيط الصناعة وتوفير المصنوعات ورواج الاعمال التجاريّة وانشاء الشركات وفتح المعامل . ويلي ذلك بيان شروط المعرض الذي يقبل كل اصناف حاصلات ومصنوعات سوريا وحيواناتها الاهليّة مع افراز محلّ مخصوص للمصنوعات الاجنبيّة ايضاً . وللمعرض عمدة ولجان ووكلاء يُرجع اليهم في كل اشغال المعرض . فنتمنى لهذا المشروع كل نجاح باتفاق كل الطوائف في حسن ترتيبه وتنظيم اشغاله ولمجازاة الذين استحقّوا الجوائز من العارضين الى غير ذلك من الاصول المرعيّة في مثل هذه الاسواق الكبيرة في البلاد المتمدنة

❁ رسالة مبعوثة من عند الله ❁ هي رسالة طُبعت في بيروت في ٢٧ ك ٢ من السنة الجارية يدّعي كاتبها أنها انحدرت من السماء على البطريرك اثناسيوس في القدس الشريف فيها اصناف المواعيد لمن يكرّمون يوم الاحد ويقومون بوصيّة الكنيسة بتقديس ذلك النهار . كما انها تحتوي ضروب الوعيد والتهديد بالعقوبات على من يهمل تلك الوصيّة . وقد سبق لنا في المشرق (٩ : ٣٣١) ذكر كتاب نشرهُ المستشرق الالماني الدكتور بتنر (M. Bittner) في هذا الصدد وبيّنا هناك انّ هذه الرسالة موضوعة لا صحّة لها . فحذار من خداع المدلّسين

(١ على انّ الامور الاخيرة لم تُمهد تسمح لنا بذكر دستور لم يسقِ دم الابرار (المشرق)

الاب لافون الفلكي البلجكي ذكرنا سابقاً وفاة الاب اليسوعي لافون في تاكوتا واثبتنا كلام المقتطف في الثناء عليهِ وبلغنا ان احد المبعوثين في دار ندوة العلوم في لندن قد لهج بثنائهِ فذكرهُ كمثال العلم وقدوة الفضل في الهند بما ادَّاهُ هناك من الخدم للعلوم الفلكيَّة وما نشرهُ من المصنَّفات الجليلة في ذلك

فائدة طوابع البريد منذ ستّ عشرة سنة اجتمع بعض الكاثوليك في لياج من اعمال بلجكة فاخذوا يجمعون الطوابع العتيقة فيبيعونها للراغبين فيها وقد خصُّوا ريعها بالمشروعات الخيريَّة والرسالات الاجنبيَّة. ومجموع ما ربحوا بذلك يبلغ اليوم ١٥٠,٠٠٠ فرنك

أسئلة واجوبة

س سألنا مستفيد عن مثل سمعهُ في العراق هذا منطوقهُ : « مطرة في نيسان خير من الفي سان » فطلب ما معنى السان

ج المراد بالمثل انَّ المطر الواقع في نيسان اصلح للارض وازكى للنبات من الفي سانٍ وسانٍ اسم الفاعل من سنا الجملُ يسنو او سنت السانية وهي الناقة يُستقى عليها من البئر . اي مطر نيسان انفع للنبات من الفي دابَّة سانية تنقل الماء من الآبار . والسانية ايضاً الدلو مع ادواتها

س سألنا احد المهاجرين الى الترنسفال أيجوز للشرقي الكاثوليكي ان يتمم واجباتهِ الدينيَّة في غير طقسهِ اذا وُجد كاهن من طقسهِ في البلاد التي هاجر اليها

اتمام الشرقيين لواجباتهم الدينيَّة في البلاد الاجنبيَّة

ج انَّ الشرقيين اذا وُجدوا في بلاد اجنبيَّة كافريقية واميركة وكان ثَمَّ كاهن شرقي مُرسَل من رؤسائهِ الشرعيين وصرَّفهُ اسقف البلد الذي هو فيهِ كانت حقوقهُ في توزيع الاسرار بالنسبة الى ابناء طقسهِ كحقوق الكهنة الغربيين من رُعاة البلد. فالامر اذن منوط بارادة اسقف المحلّ الذي يخضع لهُ اولئك الكهنة الشرقيُّون. وعليهِ يجب على الشرقيين ان يتمموا عندهُ الواجبات الدينيَّة المختصَّة بالرعاة اعني العماد والزواج والمناولة الفصحية والاسرار الاخيرة. امَّا حضور القدَّاس أيام الاحاد والاعياد والمناولات التقويَّة فللمؤمن الشرقي في ذلك ما للغربي من الاجازات وحقوق التصرُّف في كنيستهِ او غيرها كما يشاء.

ل . ش